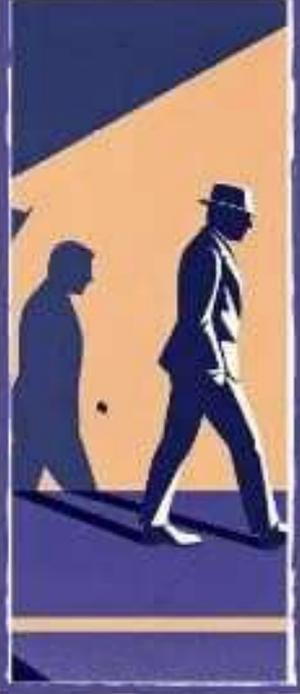




ياسين الغماري

تاريخ الولادة
ومكانها:
22/02/1995 سوسة

متحصل على
بكالوريا علوم
تجريبية 2014
متحصل على الاجازة
الاساسية بالمالية
2019
متحصل على
الماجستير في
التحليل المالي
بالانجليزية 2021



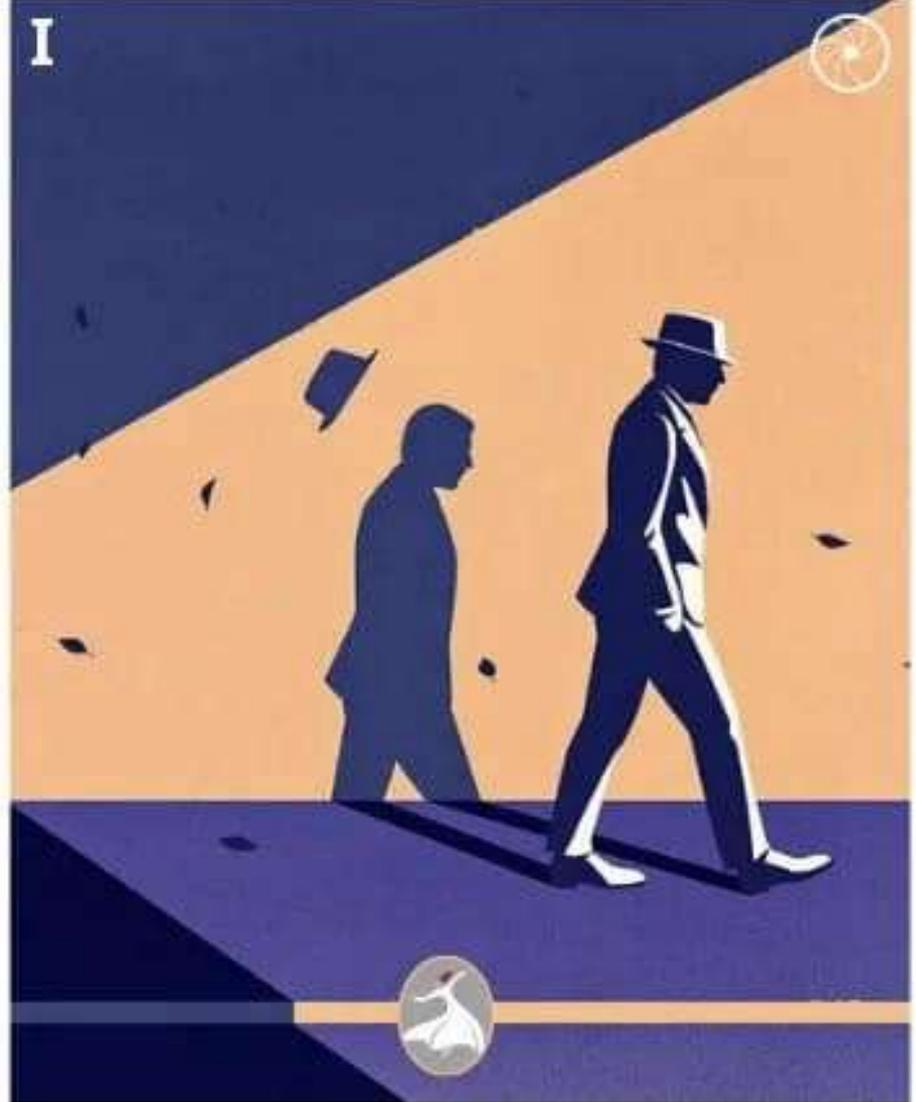
خمسوق

ياسين الغماري

زمن التعب المزمن

سيرة روائية

I



ياسين الغماري

زمن التعب المزمن



زمن التعب المُزمن

الكتاب: زمن التعب المُزمن (خسوف)
المؤلف: ياسين الغُماري
النَّاشِر: دار الدَّرَويش للنَّشر والتَّرجمة- كاوفوبيرن - جمهورية ألمانيا الاتحادية
Darawesch Verlag



A GRUNDFORLAGSVERLAG
www.darawesch.de

العدد: ٥١٠

الطبعة الأولى: يوليو ٢٠٢٣

ص: ٢١ × ١٤ سم.

الكتب والدراسات التي تصدرها الدَّار إنما تُعبَّر بالضرورة عن آراء
ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدَّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة العامة في كاوفوبيرن ألمانيا : ٢٠٢٣

بواسطة MVB

(ISBN) (ردمك) الورقي

تصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.

الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر

فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة

المدير العام: بدر السويطي

للتواصل:

الدَّرَويش للنَّشر والتَّرجمة

daraldarawesh@gmail.com

هاتف: 00491627040179. ص.ب: 87600

شارع لايناور هانغ رقم ٣١ - كاوفوبيرن - جمهورية ألمانيا الاتحادية.

كافة حقوق النَّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتَّقديم والبحث والاقتباس
العادية ذكراً للمصدر؛ فإنه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقياً أو إلكترونياً- أي
جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت
تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التَّسجيل الفوتوغرافي أو التَّسجيل على أشرطة أو أقراص
مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من النَّاشِر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرَّض صاحبه للمساءلة القانونية.

زمن التعب المُزمن

ياسين الغماري

يا من تدخل إلى هنا، تخلّ عن كلّ أمل

دانتي

الجميع يُفكّر في تغيير العالم، لكن لا أحد يُفكّر في تغيير نفسه

تولستوي

إن القيمة الأولى في نجاح أي مشروع اقتصادي هي الإنسان، ليس

الاقتصاد إنشاء بنك وتشديد مصنع، بل هو قبل ذلك تشييد إنسان وتعبئة

الطاقات الاجتماعية في مشروع تحركه إرادة حضارية

مالك بن نبي

نحنُ نشنُّ حرباً ضدَّ الطبيعة إذا انتصرنا فيها فقد نخسر

هوبرت ريفز

(1)

كُنْتُ تحت رئاسة المدموزيل "هالة" بقيادة المدموزيل "مرام" (مدام سابقاً) التي كانت تحت عمادة المدموزيل "ميرا" بقيادة المسيو "خالد" الذي كان تحت زعامة المسيو "فاضل" بقيادة المسيو "إدريس" الذي كان تحت مُلك البارون "سلمان" بقيادة اللورد "نجيب"، ولائحة السلطة مدرجة لأيام. في مُوازاة ذلك كنتُ مُتدرِّباً بحتاً. يتلقّى أوامر. ليس لي سلطة على أحد. قدّرت أن ذلك استرقاق لا يتصوّره عقل. ما أذهلني في هذا البنك هو أن حذائك لا بُدَّ أن يكون بارقاً مثل الماس. ولا يقلُّ عن مئتي ديناراً. وإذا كان من اللون البني الداكن يُفاضل أن تتعلّ معه جوارب بيّج أو كاكيتي. فضلاً عن تحيّر شكل ولون القمصان ورباط الرقبة بشكلٍ يومي. البنطال مُوازٍ تماماً للكعب. البارفان من علامة تجارية راقية ورائحته تفوح من مسافة كيلومتر واحد إذا كان ذلك مُمكنًا. الذقن أملس ما في ذلك شكّ. تصفيقة الشعر نيّقة مثل نجم سينا تيّهاً بحسنه. وفي تمام سحره. كنتُ أدربُ نفسي على السّير في موديلات الأحذية الكلاسيكية

الفاخرة التي تُطلق طرقات تُماثل طرقات أحذية الملوك. نزولاً عند رغبتهم أصرف ساعة زمنيّة أتائق في الهدام وكان هاجساً على غاية من الصعوبة، قد أعياني.

يُقدّر البنك، بالبنك الرائد في شمال إفريقيا. تأسس عقبى دمج فرعي تونس البنك للبريطاني للشرق الأوسط والشركة المارسييلية للقرض. يتألف مقرّ ترّبصي من عدّة طوابق. لكنني هاجع في الطابق الأرضي. اصطحبتني الرئيس "نجيب" في جولة مُوسّعة بعد أن رمقني بنظرة حلزونيّة وقحة، فيها سُلطة ونُفوذ. كُنْتُ أتحين الوقت الذي يصمتُ فيه حتّى تصاعدت الحموضة من بطني. لكنّه لا يصمت بأية حال. ولا يني عن رفع حاجبيه. لم أكن أُرعيه السمع قط. راح يُثرثر بدءاً من المصري الذي يُسجّل مُعاملات عملاء البنك على أساس يومي. يختصّ مسؤول العملاء من غير شكّ بدوام حسابات العملاء وإدارة ملفّاتهم. بالزيادة إلى إجراء تحويرات على العقود. أمّا ما كان من أمر مدير المكتب الخلفي فيكفل تسوية العمليّات المصرفية والمحاسبية، كما يُزاول وظيفة المراقبة والتنبيه للحوادث. ختاماً بالسيد المدير "نجيب" الذي يتولّى تنمية العملاء والقيام بالعديد من المهام التي يمتدّ ذكرها إلى شهور. وببد ذلك، كان لديه وافر الوقت ليهدره بالهذر حول كل وظيفة من وظائفهم. مسح طقمه ذي اللون البحري. المهم أنّه لم يفقد قداسة لمعان حدائه الفاخر.

وفارقني عند جناح المصر في ممّا يعني أنّني سأقضي اليوم في ذمّة "هالة" و"مرام". كان كلّ شيءٍ عليه مسحة من الهدوء الحزين. على نحوٍ ما، أصبحتُ أعرفُ أعراف كلّ واحد منهم، يابى السيّد "نجيب" التّجويز لأيّ موظّف بالدنو من مكتبه ولاسيّما العمّال المتعاقدين. لا أحد في هذا البنك في مواصفاتي باستثناء "هالة" التي كانت للوهلة الأولى على قدرٍ من الإنسانيّة. كانت طيّبة على الأقلّ. لكنّها كانت أميل إلى النسيمة. أمّا ما كان من أمر "مرام" فتتلامح مُرّيقة. أفعى بلا سمّ. تُحاول سُدى تأكيد سُلطتها. كانت أبداً واجمة، لكنّ تردّد مُثولها في المحاكم ليلها الطلاق جعلها تنفجر مثل الكراهيّة. تزوّجت عن قصّة حبّ عنيفة فحصل لها تكشّف أنّ زوجها مُجرّد ديوث يُثير الرثاء. جلب لها صديقه ورجا منها علاقة ثلاثيّة تعصف كالريح. ردّت بـ "عزاك وخلاك" وطوّحت بهما خارج البيت.

شمّلتني شعوري بأنّي أفقد طاقتي دون أي مدلول. لم أكن أعرف موقعي في هذا البنك. لا شيء أفعله، وهذا كلّ ما عهد به إليّ. بلغت أخيراً أحد أحلامي وما كنت أدري أنّ واقعه سخيّف. صادفتُ ضالّتي في الصمت والجلوس مُستسلماً. وهزّ رأسي بالإيجاب. اكتشفتُ أنّ صوتي اختفى. كُنْتُ مثل البورترية الذي يُزيّنون به البنك. يأتي العملاء ويطرحون أسئلة عني تنتهي بـ "موظّف لقطّة، من أين أتيتم به؟ ما أوسمه" أسألث كما

أنا طويلاً؟ حاولت أن أحشّر نفسي بين الموظفين، لكن دون جدوى. ما غرض فُعودي هذا كله؟ موقعي الحقيقي لا بُدَّ أن يكون في بنك آخر. لم يكن مطمحي أن أدخل هذا البنك، جُبت الكثير من البُنوك، قبل أن أباشر تدريبي. وكلّها إِعْرَضَتْ على قُبُولي ذلك أنّي لا أملك وسيط ولا أحد يدسّ إكراميّة نيابة عني.

لإنّبار الولاء في الصّناعة المصرفيّة، تحتاج إلى تحليل مُتطلّبات العملاء وتقدير اهتم. لا يُتيح لك هذا العمل استهداف كل صنف من العملاء بإجادة أكبر فحسب، بل يُجيزُ لك كذلك تقديم المنتج والسيرفس الأكثر مُطَاوَعَة لكل منهم. كان هذا جسراً الفضح أسرار العملاء وجعلها موضعاً للتنادر. يُمكنك سماع قصص مُختلفة عن أعراض النّاس وكان ذلك شيئاً يُؤلمني. طفقت "هالة" تحكي لي عن العميلة الثريّة التي تُشرك عشيقها في حسابها البنكي، ممّا يعني أنّها تنثر عليه الأموال مكان أن هو يُغدق عليها. إنّهُ يبيع نفسه. هل رأيت رجلاً يبيع نفسه نظير المال؟ رجل مومس؟ إنّهُ أمرٌ غريب ومُثير للحِداد. وشعلة انتقلت للحديث عن القاضي الذي جاء لسحب خمسة آلاف دينار من فوره. إنّهُ يُحبّ الصّبيان ويشترهم لقاء تسليم أنفسهم له. وتحوّلت لسرد قصّة تلك العميلة التي أنذرت حياتها كلّها لبناء فيلاً من خمسة طوابق، ومتى اكتمل بناء فيلّتها طلقها زوجها وجلب عشيقته لتُطلق مؤخّرتها فيه. لقد أعفى من هاجس

اللوكال واكتراء الشقق بالساعات.
كفناة سترىبتيز مُحترفة تمضي "مرام" إلى دورة المياه مُلَطَّخة بالظلمة
لُتسوي الكُحل وتكبس السوتيان الذي تهذّل بعد أن افتعلت مُناوشة مع
أحد العملاء واسترعت الأنظار نحوي دون أن يكون لي يد في الموضوع.
فارتت غريمها السّمج يهذي مُمزّقاً ويقفز بحوافر الحصان. فُخّار يكسّر
بعضو. تعاطيها السيئ جعل العملاء يبغضونها. أخذها البارون "سلمان"
إلى مكتبه لتهدئته، وقد كان أكثر تجاوباً للإبقاء على صورته بين أهل
المدينة.

تتأفّف "هالة" خائبة ومُختلطة بالضجر والاستياء

"لماذا لا تستقيل من هذا البنك السفسوف؟"

"لا أستطيع"

"حاول أن تفرض نفسك"

"بذلت كل ما بوسعي"

"اسعى أكثر"

"أما قلت لك أنّ وُجودي غير مُرَحّب به"

"لا عليك"

"لا بُدّ لي أن أتلهّى بشيء ما. بأي شيء"

"كُنّ وقحاً"

"ليس من شيممي"

"إنَّ المبادئ تغيّرت، وما فتئت تنتسب إلى المدينة الفاضلة"
 كنغمة ساكسفون ذاوية أحسّ بأقدامى تنزل بين الأوحال والإنسحاق.
 ليتني أهرب. تصدح معزوفة الفرار في رأسي. الهرب ليس من طبعي.
 أطفو في البله والعرق والعتمة. أُفْرَج نفسي بحثاً عن نصرًا من هزيمتي.
 أجدني في مكتب "ميرا". تسحبني بنظراتها. تحدّسُ أنّي صرخات كثيرة
 لم أطلقها. الوجه الشاحب يشعّ نصفه من تسلّل خيوط الشمس كعناق
 الفسفور بالظلام. شيء خبيث ينفجر من عينيها. شيء مُحيف يمتدّ من
 سواد القلب. شيء مُقرّز يمتليّ نقمة من دواخل لا يُمكن فهمها.

"ما الأمر؟"

"لا شيء أفعله"

"كلّنا في ضغط"

وتصمت.

عاهدت الرئيس "نجيب" بالاعتناء بي أثناء فترة تدريبي ونكثت
 بوعدها. شهرت مشرطاً على تحرّكاتي، وكلّما تحرّكت قصّبت بواعثي، حتّى
 صارت مُفكّكة. كُنْتُ أضحى غُبناً من أجل الحرّية. الواقع أنّي علمتُ من
 "هالة" أنّ لـ "مرام" المتعجرفة ذراع في عطبي. أحاطني بمعرفة ملتبسة
 قاحلة دون مُكاشفات تتبعها. وما عاد يهمني حقاً أن أعمّق. كلّما دنوتُ
 من المعرفة لاقيتُ الهلاك يتلعي. أضححت الدراية أعتى من أي حقيقة.

إنني أختصّ عنهم بقدر من اللامبالاة، وهم يتكفلون بقتل القسط الآخر. ولعني بعد قتلهم لن أكلّف نفسي عناء الاعتناء بهندامي، ولا التقصي عن أوهى معلومة تُساعدني في المضي قدماً ببحثي، أو حتّى لحثي إيلاًماً على المجيء إلى البنك. وفيما كنتُ أهذي كانت نظرات "ميرا" الهائمة تطفو على حدّتها. ترامقنا في كآبة شاحبة. تسلّل "إدريس" وأمدني لاهباً بورقة ذات حجم إ4. لم يروقه نسخي ورآه مُعوجّاً. يده تسترخي على نصف رأسه الصّلعاء والمُحنّطة.

يلتصق بمُكر واحتقار ويقول هازئاً

نبي لا أستطيع

عشيّة ذلك اليوم، جمّعت قدرًا ضئيلاً من المعلومات من خلال المقالات المُكوّنة من نصف صفحة والمنشورة على الموقع فيما يتعلّق بالمسؤوليّة الاجتماعيّة للبنك. أثناء فترة تدريبي، لم يُسدي لي الموظّفون أيّاً منها. بميزته بنكاً مرجعياً في الشرق الأوسط، لم أجده يلعب دوره في التنمية المستدامة ولا حتّى مُتعهّداً بتبني سلوك مسؤول اجتماعياً. لا وجود لتقارير عامّة منشورة. البنك يزعم أنّه يُراعي البيئة ويحرسها دون الإفادة بتصريحات حول ممارساته في هذا الصدد. هذه رُسومات خادعة تُطابق الغسيل الأخضر أو فنّ تخضير صورته، كما الغسيل الاجتماعي لتَمْويه مَسَاءة دعاؤها الإداريّة الداخليّة إزاء موظّفيها دون اتباع نهج وقائي وشدّ العملاء إليها. يؤدّي الغسيل الأخضر إلى نشوء التباسات، وكما يمدّد صورة معيبة يسوء بها إلى البنوك المُشاركة في مُبادرات أصليّة للتنمية المستدامة. تُصوغ برامج العمل الخيري بشكلٍ استراتيجي لتضليل المستثمرين الخارجين بشأن قيمة الشركة وتحقيق أهداف الربح.

حماية البيئة قضية كُبرى. أمّا الحفاظ على الموارد الطبيعيّة ففضيلة عظمى. من ناحية أخرى، يحسّ الناس بالواجب مُجاه البيئة وهذا يرجع في المقام الأوّل إلى واقع أنّ تلوّن المناخ يُقيمهم في بؤرة المُبالاة. تبدّل المناخ ينال من حياتهم اليوميّة. إذ أنّ هُنالك من يتحسّس من الرطوبة وهذا يترك تنوعات ومقرّفة عليهم اليوم بامتداده.

قالت "ميرا" ذابطة ومثورة على كومة الأوراق

"كم ستبقى بيننا؟"

"ثلاثة أشهر"

تفحّ كأفعى وقسمات وجهها كومة من الاضطهادات البغيضة

"ولا كلمة أمام الرئيس "نجيب" عمّا تفعله"

"لأي شيء؟"

"سيغضب منك وربّما يرفدك"

"ولكنني لا أقوم بفعل غير قانوني"

"قول الحقيقة غير قانوني"

"وبحسبي؟"

كان التعب يمتدّ إليها من باكرة ساعات النهار. "اعمل في صمت"

اعتقدت أنّها كانت ستُخبرني رجراجة بكل شيء، لكنّها كانت مستاءة

من كلّ شيء. ألحظ فيها إزدياد قطرات العرق. وبُغية عميقة للصُراخ.

يسودني شعور بأنّها روبوت ليس من حقّها القول إنني مُتعبة. كان حالها

مهودوداً ومكدوداً. تتراقص أسلاك الصمت. تشدّها. وتخنقها. حالة

عويصة خسيصة تلك التي فيها. كصفعتين من إذلال واجم. أصوات

النّاس المُعدّبة تنبعث منها. تركتها للسّاعات الطويلة من العمل الشاق

والوجه يعزف الحزن. تُطلق، بين آنٍ وآن، أنيناً ملآن بالكدمات الحسيّة

والمادّية الغائرة. تسريح منها هضاب مشروخة مُدماة. بينما أقداح الشرب تُكرع، تُكرع.. عواء، عواء مجلجل تقشعرّ له الأبدان، كنت أكابد أقصى أوجاع التفكير. أنظر إلى صناديق كرتونية تربض على عضادة الباب وأذرع بشرية من الأوراق النقدية تمتد وتستमित في قبضي. وأفرُّ منزلقاً من مكاني مُنلمساً طريق الدواليب. أنكمش في العتمة. أنقرُّ على عُضوي لأتبول للمرّة العشرين. المدفع الرشاش يتر تفكيري والصّمت يغال شتاها. وبالتّالي ضحكت عن ما جئتُ لأفكرّ فيه في الدواليب ذلك أنّي أودُّ بعث مشروعاَ مصرّفاً بتلك النقود الهزيلة التي عندي.

وفقاً للاستطلاع الذي أجرите بعد أن جئت موظفي البنك بأكواب الشاي، يحسبُ أربعة وثلاثون فاصلة أربعة بالمائة من المستجيبين أنّ الإيصال ليس له أي فاعليّة على صحّة الفرد. الثابت أنّ هذا الجهل منشأه قُصور الحملات التوعويّة. زد على ذلك الخمسين بالمائة الباقون يؤمنون حقاً بخطورة هذه القطعة الصغيرة من الورق. وخمسة عشر فاصلة ستّة بالمائة لا يهتمّون بما سيحدث لهم أو لغيرهم. بعد ثلاثة أيام بالضبط، أجريت مُقابلات مُباشرة مع العديد من عملاء البنك حول رؤيتهم واستخدامهم للإيصال، ثلاثة من العملاء العشرة الذين شملهم الاستطلاع أعلنوا الاحتفاظ بالإيصال للضمان والمُحاسبة، وخمسة أشخاص لم يحتفظوا به مُطلقاً، شخصان يُبقيانه ذلك أنّهم يُعانون من الاكتناز القهري.

الورق أوّل مادّة تستهلكها الخدمات المصرفيّة بعد أعراض النّاس. إنّهُ يُعدّ كبدًا اقتصاديًّا هامًا وجانبًا بيئيًّا حسّاسًا. التوظيف الملائم للطابعات ونقل المعلومات من الوسائط الورقيّة إلى الوسائط الرقميّة وتوفير المساحات الضوئيّة يكفل تقليل التأثير البيئي. وبوجه أخصّ هذا ما لم تفهمه "هالة". كانت تُهدر كل علب الأوراق. تملّكني الحُزن ذلك أنّ كل الأوراق التي دُمّرت تعني إتلاف الأشجار والغابات. هذا يتضارب مع بحثي في شأن الاقتصاد وصون البيئّة.

قُلْتُ. " هذا العمل له تبعات معيبة "

تردّ حادّة الطّباع

" فلا شيء يهمني "

" حسبتُ أنّك تختلفين عنهم "

تُجيب بنزق:

" هذا ليس بيتي كي أصونه "

" لكنّه المكان الذي تسترزين منه "

تقول في طيش وخطواتها سمجة:

" راتبي لا يكفيني حتّى نهاية الأسبوع الأوّل من كل شهر "

أضحك بصورة غامضة. إنّ التفكير المُستمرّ لن يصل بي إلى أي مكان آخر. من أين تأتي "هالة" بالمال لإكمال الأسابيع الثلاثة القادمة؟ وكان

رأسي يمتلئ بتكهّنات مُرعبة. أذكرُ أنني أبداً لم أسألها كمّ تقبض. أذكر أنني فارقتُ قسيمة من همّتي لطرح الأسئلة، وما تبقى لا يكفي لأستهتر الرئيس عمّا ينبغي معرفته. أذكر أنني وقتذاك كنتُ شخصاً له نصيبه من المشاعر. أذكر أنني تضايقت وبكيتُ بدموع محرورة جفّت لأنني أصبحتُ إنساناً بلا مشاعر، عاطفتي مُحنّطة، ثمّ عرفتُ أنّ اللامبالاة من بين المشاعر المُقنّعة والنّاجحة. تفرّر منّا أن نتمشّى بين شوارع المدينة الغامضة ليلاً. يدها النحيله والشاحبة محشوّة في فتحات معطفها. نجوب الأحياء المُلتويّة والمُظلمة بكتّماتها. أعمدة الإنارة باهتة تُثير مللي. يكاد الأخدود الأسود يجترعنا من وقت لآخر. الحيّ، طريق مسرحي طويل من الذكريات المُشرّدة وبهلوان مُقنّع بالشجارات الشرهة للموت. أحسُّ أنني أنجرف نحو بالوعة مُحيفة قائمة. إلى أين أنا ذاهب معها؟ لماذا قبلتُ دعوتها؟ أصطرع طيف الفصام وأطردهيمنتته.

يخفق لسانها كجناح طائر:

"أين وصلت في بحثك؟"

"وصلت إلى طريق مسدود"

"ألم يُوصلك الرئيس "نجيب" بما تُريد"

"كلا"

"ماذا عن "ميرا"؟"

"لا تعرف شيئاً كذلك"

"هذا معيب"

"أشعر بالأسى، وقتي ينفد"

"لقد أتيتَ إلى البنك الخطأ"

"أعتقدُ ذلك"

"أتمنى أن تجد وظيفة في بنك آخر"

"لماذا يُريدني الجميع أن أغادر؟"

"إنهم خائفون منك"

"وهل أبدو كشخص مُخيف؟"

"إنه ليس كذلك"

"خبريني أنتِ إذن؟"

"يخشون على بقاعهم في البنك"

"هذا سُخف"

أبأنتِ لي أنّ الموظّفين الشباب ينتسبون إلى الشركة المُتندبة وليس للبنك نفسه. كان الموظفون الشّباب في البنك مثل الأبقار، أدناهم مرتبة، يجلبهم كبار المسؤولين بكلّ ما أمكن من انتفاع ودون أن يجنوا ما يُثمّنهم. مدعاة لضغوط وفي إعْتِياصات نفسية. لديهم قصور في العزّو إلى شركتهم وهم على تأهب لمفارقة عملهم حال حيازتهم على عرض أفضل. كل

شيء مظلم، وما هو مظلم لا ينبغي كشفه، أو حتى بُقعة من الضوء لا يجب أن تسقط عليه. مثلما هُنالك مناطق يُحضر دخولها، هُنالك أسرار يُحضر بثّها. إنَّ جهلك ببعض الأشياء سَكينة لأعصابك. والجهل نعمة لا تعرف كرمها. إنيّ أندم على معرفتي، ويا ليتني بقيتُ على جهلي، لذا ابقى جاهلاً. لا أدري بما أُجيبها. أصل الظلام مني. ولفرط ما عرفتُ بشاعة من الحياة ما عاد ثمة شيء يُخضّني ويُخضعني. تساوت الشرور بدرجاتها في نفسي. كل الفواجع خبرتها وما عاد شيء يرجّني.

"نحن لا شيء"

"كم راتبك؟"

"من المُخجل أن أُصرّح به"

"لا عيب بيننا"

"لا تُلحّ"

قدّرتُ أن راتبها لا يقلّ عن ألفي دينار. أتراني مُخطئاً؟

"كيف تستكملين الشهر؟"

"تلك حِكاية أُخرى رَدّت في عناد"

"خبريني"

"عن المُراء؟"

بشعور يُشبه خيبة أمل قاتلة. ابتسمت في جذل وسكتت مُثقلة.

تختلس نظرات مُحطّمة ومُترابطة. راح كلّ منّا يُحدِّقُ في الآخر بسُأم. أحسبُ أنّ هُنالك من يُغدق عليها الثراء، ذلك أنّها قد حدّثتني عن الحُرّفاء والعُملاء الذين يأتون إلى البنك لسحب الأموال المبعوثة من قبل أفراد غير مُرتبطة بهم. حتّى أصحاب المصلحة هُنالك من يبذر عليهم المال حلالاً زلّالاً. إنّها خزينة الدّولة. ويُعلّل هذا علّو مكانتهم في رأس مال البنك. صارت العائلة المافيوزية مُتنفّذة وأسوأ، من أي وقت مضى، بعد زواج واحد منهم، بابنة الرئيس المخلوع. رُبتتهم العاشرة في قائمة الذين نهبوا أكثر من ثمانية آلاف مليار من المال العام ما بعد الثورة. تمتد القائمة إلى مائة وسبعة وعشرين عائلة مُفترسة ثريّة. إنّهم لا يعتمدون على نهب واحد، بل يعتمدون على نشل أحلام الشباب وطاقاتهم وأساليب قمعيّة أُخرى. من سيحاكمهم؟ القضاء في صقّهم. لديهم عضويّة خفيّة في البرلمان ويسنّون القوانين حسب رغباتهم. يأكلون ما يجلو لهم إلى أن غادر المستثمرون البلاد من جنون استحواذهم. كلّ القوانين الماليّة طالها العبث. أستبقى في عقّتها بمفردها؟ من لا يُعيطك مُرادك اجتثّه منه. ما عادت العلاقات تدور حول الإنسانيّة، بل حول الأموال والمصالح. كما قال ذلك الإعلامي السّمج أنّ زوجته واحدة من أجمل شركاته وصفقاته، ذلك أنّها تدرّ عليه النقود حلالاً زلّالاً، شبه نفسه بالنبي، واستشهد بقوله: "يا خديجة، كنت فقيراً فأغواني الله بك"، شأنه شأن الدولة وأرباب

البنك. للجاه مفعول لذيذ كالترامادول. من يُحاسب من؟ الإعلام بنفسه
مُحَوَّل من الجلّادين القُدّامى والجُدّد. لمن تشتكي حَبّة القمح إذ اكان
القاضي دجاجة⁽¹⁾. وولّت راجعة تتنّدر عن بعض الحُرّفاء.

"ومع ذلك يُصرّحون أنّها مُرسلة من طرف أصدقائهم"

قُلّت. "هذا فعل خسيس"

"كَمْ أَنْتَ بَرِيءٌ"

"لستُ بريئاً ولكنني ذو أنفة"

"الحياة تُجبر المقهورين على فعل كل الأشياء"

"القهر لن يمتدّ إلى أخذ أموال الآخرين"

"أيام الشقى على الجبين مكتوبة"⁽²⁾

يديها ترتعدان رصاصة. وتتعرّى عن الرُعب وظُروف عائلتها الصّعبة
أبدًا. أبدًا مدهوشة تُعاني. أبدًا مُلتصقة بالفقر نفسه. كأهم في حقل فيه
ألغام وصواريخ وقنابل، تبعث على النّقص. الشريط الدامي ضياعًا
يشذب سهاكة القوقعة في الحقيقة المدقعة. امتنع والدها عن العمل مُدّة
مُعينة. كانت في الثانويّة متى لم يعد لديهم ما يأكلونه حتّى. اضطرت
الظروف أختها على فراق مقاعد الدراسة حتّى تُوفّر لهم المال. عملت
في متاجر شاملة، تبع العُطُور والمرطّبات. شعور الخصاصة إلى ما بعد

(1) مثل شعبي

(2) مثل شعبي تونسي

سنوات كثيرة. هذا الشعور النّحيل بالذات جعلها تسأم وتختنق من أعماقها. بلطمُ كطبل هُنود الحمر. تعلّمت المكر والمُقاتلة من مُعاشرة السّباع والذئاب. تُقاتل أكثر ممّا كانت تقدر. تُقاتل في حرب ولا رشّاش في حوزتها. لو لم تنهب هذه اللوبيات قوت الشعب كعُنف الجراد، أما كانت قد انجرفت إلى هاته الصدقات الرديئة؟ النّظام المصري احتكار عائلات مُتسلّطة دعوة لسحق المنافسة الاقتصادية وحتى وأد انتفاضة الشعب المسكين. تُعدّ العائلة المُنفّذة المُلقّبة بأبناء الاقتصاد المُظلم من بين المُتفعين الأوائل في الوطن. رُهط من الرهوط الفاسدة. اجترموا وأفلتوا من كل ضُروب القصاص الأكيدة. تستقرّ العائلة بالولايات المُتحدة الأمريكية وتحوّل الأرباح إلى أرصدهم المصرفية. يعيشون حياة لا يحلم بها الأمريكيون أنفسهم، في حين يُنتهك أبناء هذا البلد حقّه. من سيُحاسب من؟ إنهم الأبالسة والملائكة. تحيّنوا غناهم من نهب رصيد النَّاس لجعل المافيا الجديدة سهلة الانقياد، ناهيك عن دسّ إكرامية تُقدّر بثلاثمائة مليار في محفظة رئيس الحزب الإسلامي لفوائدهم والبدء في تدنيس دوائر الوطن ثانية. هذا التلاعب لم يكن من عبث.

"بل من رسكلة بارون ماسوني مُسيطر على البنوك العالمية"

"كيف؟"

"من أهمّ تعليماته سداد مناعة ومثانة لأبناء الاقتصاد المُظلم"

"سمعتُ عن هذا"

"توافقهم الخيالي أفضى لخداج الثورة قبل ولادتها"

"ألم يكن واحد منهم صهر الرئيس المخلوع؟"

"نطلق دعوة لرسكلته وبعثه من جديد"

يتعمّد أصحاب البنوك السيطرة على المناخ، بل وحتى تدميره، إلى أن يسود جو من الفوضى والسواد الخائق. لهذا السبب يُصاب الكثيرون منّا بالقلق والكآبة وأمراض نفسية أخرى بمجرّد أن يتغيّر لون المناخ. قد يستيقظ أحدنا في حالة من الفوضى ذلك من الضباب السام المنبعث. إنّها أساليب قذرة يستعملونها.

"هل سمعت يوماً عن مشروع هارب السري؟"

"كلا"

"سلاح فتاك يُموّله أرباب البنوك، فهو يُزعج المناخ عن طريق قصف

الغلاف الجويّ بأشعة عالية التردد، كما يمَسّ أيضاً من الدماغ البشري"

"وما هدفهم من كلّ هذا؟"

"السيطرة على كل قوانين العالم وتخويف خصومهم"

"هذا عالمنا كذلك"

"إنّهم عالمهم فحسب"

"كيف يُرهبون أعدائهم؟"

"من خلال خلق الكوارث الطبيعيّة"

"والنهاية؟"
"الترتيب للنظام العالمى الجديد"
ويرشح صوتها حاجة مُتّقدة:
"كان والدي عامل يومي"
"أنا آسف لما حدث لكم"
"بالمناسبة أنت وأختي مُتجايلان"
"أحقاً؟"
"درستما سنة واحدة في الثانويّة"
"ما اسمها؟"
"سناء"

وذكرها تنسكب على حين فجأة. مثل سوط الشمس في قيظ الظهرية. درسنا معاً. شقيقتها ذات السادسة عشرة ربيعاً آنذاك فارقت مقاعد الدراسة لأسباب غامضة. رأيتها مرّات قلّة منذ ذلك الحين. ورأيتُ خجلاً باطلاً في عيني "هالة" كأنها تبكي. يعرف وجهها كأبة مُمتدّة من الماضي. تُنفث الضباب من فمها. تتسابق أنفاسها. أكاد أسمع نبضها المحروق والسري. يتناهى إلى سمعي موسيقى النشيج تنزّ ضياعاً مُفجعاً. الألم أغنية مُترامية الضجّات والهتاف. بؤس الحياة ينقرها. يغمرها شيء من التيه الجليّ والمبهم. شيئاً يقبض بأنفاس العالم الملعّن والمرتاع. لقد

وثقت بي وهذا عهد لن أخونه أو أفشييه على أية حال. شعوري بالعاطفة يُنعشها. أحسب أنني بدأتُ أتعلّق بها؟ كنتُ قد فارتُ الحب منذ غابر الزمان وماعاد يقرع سياجي ولا أنا عدتُ ساكنًا عند مدخل سكناه. أحسبُ أنني بدأتُ أحبّها؟ لكنني فقدتُ مكتتي على مُبادلة الحبّ بالحبّ. أبدأتُ أتعلّق بها؟ ما عاد في قلبي مكان شاغر لهاته الأحاسيس. الانسان الذي يطمئن قلبه له أن يسرّ بالكمّ الأكبر، وقد يكون عارياً وموعوداً كثيراً، ومع ذلك ليس له أبداً أن يلمس أعمق ما لديه، ما يُجَبِّئه في الأماكن المظلمة. أنا عن نفسي، متى بطمئن قلبي، يظهر ذلك في أطواري. أحسّ أن أدنى إهتمام يُقدّم لي يتحوّل فجأة إلى حُبّ حتّى وإن كان من قرد.

في بكرة اليوم الموالي، تحوّلتُ إلى الواجب التالي. كانت مُساءلة وإفراج العملاء الذين يكتنزون أموالهم عمّا إذا كان لديهم تحيّل عن مصير أموالهم. كل الأجوبة كانت لرفع قسّط أموالهم دون التعمّق ودون إفصاح أدنى إيضاح. كما أنّ اثنان وثمانون في المئة من المستطلعين يُشكّكون في المشاريع الخفيّة التي تُستغلّ فيها نُقودهم. طغى غياب تقارير سنويّة على الثقة بين البنك والعملاء. التقرير السنوي يُعد وثيقة مهمّة لإخطار العملاء بإثابة هيكله مدخّراتهم. ما لا يطلّع عليه الأكثرية أنّ المدخّرات عيونها لا تنام. تُستفاد المدخّرات لإحداث التباس في العالم. تستثمر البنوك وشركات التأمين في الطاقة النوويّة والفحم ووضّع اليد على الأراضي والتّعدين

والتفط. يظلّ الاستشار المسؤول اجتماعيًا غير معروف نسبيًا لعامة الناس، ذلك من فقد المعلومات من حاشية المؤسسات المالية.

قال أحد العملاء في حين كان يرقبني باختناق:

"ما هي الحلول البديلة؟"

"إليك حلّين لمدخراتك لخدمة تطلّعاتك وتحسين العالم"

شرحت له مقترحاتي التي سأنقلها للرئيس "نجيب". لك أن تودع مدخراتك في دفاتر التنمية المستدامة. والتضامنيّة. هو حساب توفير مُنظّم. تشترك المبالغ في تمويل المشاريع الخضراء مثل الطاقات المتجدّدة والمؤسسات الصّغيرة والمتوسّطة وكذلك الاقتصاد الاجتماعي والتضامني. لفتحها، دفعة صغيرة كل ما يستلزمه. المدفوعات اللاحقة حسب تقديره. مثل دفاتر الحسابات المنظّمة الأخرى، فإنّ الفوائد المكتسبة مُتحرّرة تمامًا من الضرائب. ثمّ تغرّبتُ إلى المقترح الثاني ألا وهو المحافظ الاستثمارية. له أن يُخيّر تصوّيب قِسم من رأس المال الخاصّ به نحو اقتصاد أكثر مسؤوليّة وأكثر وعيًا بالبيئة. له كذلك استثمار هذه الأموال في المشاريع المتنتقة على أساس ضوابط ماليّة تكميلية وبناءً على حساسيّتهم، مع الحكمة الحسنة. يخلق هذا عنصرًا جوهريًا للتنمية المستدامة. أتى بالذكر إلى المحافظ الموضوعيّة: وهي ذات علاقة بفكرة رئيسيّة، كالطاقات المتجدّدة والقروض الصّغرى للطبقة الهشّة، وما

إلى ذلك. هذا نظير ممتاز على كيفية سَطْوَةِ البُنوك على النَّاس وتَرْغِيبهم على التحوُّل إلى البيئة الخضراء ومُنَافَحة الاحتباس الحراري، مع ضمِّ الاقتصاد في الوقت عينه.

ارتكنت في نصف جلسة على مقعد وفير. كان الرئيس يُرتَّب بعض المملّقات في صناديق كرتون كبيرة. بدأتُ ألوك في رأسي ما سأقوله بلا حُشوع. اختلط عطري بعطره ففاح عطر تعدّدي في المكتب. أستشقه بشراهة. أحسّ بامتداده اللاسع في قفصي الصدري مُتغلغلاً إلى رأسي كقصف الريح.

بَرَكَ على كرسيه الجلدي المُتحرّك، فتح قفل جاكيتته الرمادي، وقال بعينان تشعان ضجرًا:

"بها أخدمك؟"

أحسّ أنّ نبرته تتحسّس دواخلي وتشدّ أعصابي. "لي بعض الأسئلة" يفحص براءة الملامح في نفسي، أكثر ممّا ينبغي:

"تكلم"

نقلتُ له ميّلي في إجراء بعض التحديثات بالبنك. استعاضة تذاكر الموزّع بإيصال إلكتروني. هذه الورقة-التي نجدها مكدّسة في الشوارع بدلًا من وضعها في علب القمامة-ليست بسيطة. إنّه ورق حراري يحتوي على بيسفينول أ. يُمكن له أن يخرق الجلد ويُسبب الأورام. كشفت دراسة

أنَّ الصَّرَّافين الذين يتعاملون مع معظم الإيصالات لديهم معدل BPA أعلى بكثير في بولهم. كما يُمكن أن يساهم التخلص من نفايات الورق في انبعاثات غازات الاحتباس الحراري. يزيد استفاضة الأراضي من تهديد محو الغابات، مما يُؤدِّي إلى تكثيف التعرية. الميزة الكُبرى في مقترحي أننا سنتَّعض عن الورق، ذلك أنَّ المشاكل المتعلقة بالأضرار البشريَّة والتلوُّث البيئي لن تكون موجودة، علاوة على رفع عدد المبادرات التي تسعى إلى الحدِّ من سَطوِّتها على البيئة. مثل تقليل الانبعاثات المرتبطة بالتنقل والإستعاضة عنها بحضور المؤتمرات الفيديو والتعلُّم الإلكتروني. فضلاً عن تقديم منتجات مُصمَّمة بيئيًا أو صديقة للبيئة أو مستدامة.

أخذ يضحك عن ما جئت أقترحه عليه:

طَرِبَ هُزْجِي. "إنَّها من مشمولات وزارة البيئة وليست من مشمولاتنا"

كان هنالك شعور مُروِّع أخذ يحدِّ على نفسي:

"ما قلته يُعدُّ جزء من المسؤولية الاجتماعية للشركات التابعة"
ردّ مع ضحكة السحليَّة. "قلت ذلك بنفسك،" الشركات "ونحن
"بنك"

سقط صوتي وجُبلت بالصدمة. "ولكن؟"

هذا الربِّ العليم بكل واردة وشاردة كالأنوار الكشّافة، لا يعرف أنَّ

البنك كيان اقتصادي، ممّا يعني أنّه شركة. رَجْفَةٌ برق تسقط تمتدّ بغتة في جميع أنحاء جسدي. انتقل بي الحديث إلى الاستثمار المسؤول اجتماعياً، محتوى "التنمية المستدامة" للمشاريع الممولة. حيث يتمتع البنك بالشكّيمة على ضَبَط العالم الذي يُوحّدنا، كالطاقات المُتجدّدة التي تتمثّل في الألواح الشمسية وطاقات الرياح والطاقات الحرارية الأرضية. أي الانتقال إلى الاقتصاد الخالي من الكربون. إنّنا أمام أسوأ سنوات حياتنا، إذ نُسجّل مُستويات عالية من تلوّث الهواء.

"صيغة استثمار الأموال تُسوّي الاستقرار كما تُسوّي الاختلالات"

أخذ يُعرّي كل شيء:

"هذا بنك لا يعنيه شيء سوى إدخال الأموال بأيّ وسيلة"

"أعلن البنك في موقعه الإلكتروني أنّه يحترم البيئة دون مُوافقاتنا

بالتقارير"

ويزيح عنهم أكداس الفضيلة:

"لا يُمكننا إخبارك عن مشاريعنا، ولكن تيقن ضمناً من أنّ الربح كل

ما يهمنّا"

"حتّى وإن كان على حساب الطبيعة وصحة النّاس"

شرس التعبير:

"بكلّ تدليل"

"حتى لو خبرنا كارثة شبيهة بكارثة تشيرنوبيل وفوكوشيما؟"
البخار الأسود يتسلّل من عينيه حاداً ومُظلمًا. "المال هو كل ما يهمنّا"
وفقًا لمنظمة أوكسفام، "ستّة بنوك فرنسيّة تجرّنا إلى عالم أسوأ بمقدار
أربع درجات مئويّة" ذلك من المشاريع المتعلّقة بالوقود الأحفوري.
ناهيك عن البنوك العربيّة التي تُساوم على الأنشطة التمويلية والاستشاريّة
اللامسؤولية بتدمير البيئة.

وصدى صوتي يتقطّع:

"الكوكب ينهار، لديكم جُزء من المسؤولية في هذه الحالة"

تهكّم آخر يضربه كالبحار:

قارب على لكمي، لكنّه شرب من إيريقي الماء. "لا يهتمّ البنك

بمقترحاتك"

"ليس في استطاعتنا أن نأكل النقود ولا أن نستنشقها ولا حتى أن

نشرها"

وفي كلّ مرّة أقابل بالهزء. "سنصطحبك إلى منطقة البحر الكاريبي إذا

حدث مكروه"

ويضحك سخياً.

رقعة من وجوم مُرتبكة.

وحادّة.

ويقيناً كان على وشك أن يقول لي جيئني بقهوة. ممّا لا يدريه أننا بحُقم مشاريعهم وحاجتهم لنيل مزيداً من المال، غداً سيكون لدينا زجاجة أكسجين مُعلّقة على قفانا. ملفوفون في أردية نقينا من الإشعاع النووي السامّ. وجدتني مُتججراً وملسوعاً. أبله القسمات. تتدفّق الدماء في وجهي. يبدو أنّ التناقش معه مُستحيل. ثمّة شيء يرتعد، يهتزّ، يحضر في رأسي. وأنتي متربّص ساذج مُسخر لتسليتهم. ثمّة شيء يشدني قصيّاً إلى مُستنقعات الرأسماليّة.

أين تعهّد البتّ في الآثار الاجتماعية والبيئية لاستثماراتهم؟ وأين إقصاء أسهم الشركات التي لا تستوفي مقاييس مُعيّنة من دائرة الاستثمار؟ ما أقرّه لي أنّ غالبيّة استثماراتهم- إن لم تكن كلّها- تتمحور وبوجه أخصّ حول فتنة البيئّة، منها الإحتباس الحراري، ذوبان الغطاء الجليدي، الفيضانات، التصحّر، واختفاء أنواع الحيوانات. تخيلته يقول لي إنهم يعملون على إبادة العالم عن طريق تمويل مشاريع تُؤدّي إلى هلاك الانسان. وأنّ مشاريعي صبيانيّة، وغير ناضجة. وأنا الذي كنتُ سأطرح عليه كالأبله أن يُبدّل من صكوك القروض وأن يُدخل مواصفات مُتفرّدة يحترّمها المقترض أثناء تشغيل الحصّة المُقرضة من البنك. ما لا يدريه عامّة النّاس أنّ للبنوك أذرع خفيّة كامنة في أكثر الأماكن حقارة، تُحرّك العالم وتُشكّله بالشكل الذي يُناسبهم، كشأن العائلات النّبيلة التي تُقرض مبالغ طائلة للدولة

شريطة أن تتدخل في قوانينها وشؤونها. يُسيطر روكفلرز، ومورجانز وروتشيلدز على جميع المؤسسات الماليّة في العالم ، بينما بيت آل سعود، فهم يسيطرون على عشرين بالمائة من احتياطات النفط العالميّة.

بلغ الصقيع في رأسي جارحاً. يدوي هزيم الرعد الممزق في رأسي فظيماً. جاهدتُ قبالة الرئيس أن أُسيطر على نفسي وعشوائيّي، دون جدوى. والرعد يُنصّبني في أماكن حالكة تقتحم براري وعوامي المرعبة. ترأسها العفاريات والمخلوقات المظلمة ذات العيون المفقوءة. وكل منهم يفتح في وجهي بعبارات مُتقطّعة حارقة لا أفهمها. مُتحمّزين لقتلي. يتحدّثون بشيءٍ خطير أجاهد في فهمه. ومن يفهم لغتهم؟ لغة العفاريات والشياطين. ترجم لي واحد منهم أنهم مُستعدّون لتفعيل برنامج المسؤولية الاجتماعيّة في عوالمهم الناريّة والصحراويّة شريطة أن أستسلم لمرض الفصام وأنظّم إليهم. تبرق في وجهي حياة حزينّة موحشة. أُجيب بـ "كلا". ينعقد الكلام في حلقي فلا شيء أقوله بعدها. تصفّعني الأيدي الممتدّة من الأركان الشريرة والواقدة. غالى الأمل بمزيد من الأمل والجنون اللغو. كُنْتُ أرتفع في مكتب الرئيس. أخلّق في الفضاء كدمية قطنيّة مُثقّبة. أطلق رجليّ المتدلّيتين في حركة برغيّة أنفجر فيها رقصاً. بلدنا غاوي رفض لكنّه غاوي رقص. فوق عاصفة مستهترّة تشدني حدّ الأعصاب أمتع الرئيس بغبائي ومناغراتي. سئمت الرقص

والجنون. سئمتُ الحياة ونفسي. سئمتُ كوني منذ سنوات أقاوم طيف
 الفُصام بلا مُبرّر. ليس هُنالك شفاء يجيء. وليس هُنالك مُنتصر بيننا.
 أتوسّل القرار وصدفته وما من مُجيب. يُتابعني الرئيس بعين ورعة وسامة
 وأمرة. يرشق عليّ آلاف الملايين تتطاير جيّاشاً. أقول بلوعة وبلادة أنّي
 لا أريد المال وتسلّطه، بل عقلي وانتظامه. أودُّ أن ينصلح كل شيء أن
 يتنظم، أشتهي أن أُحقّق العدالة، أن أنثر السّلم، أن ينعم كل ما حولي
 بسكينة لا تنقطع. الرئيس لا يزال يُمطر هَدراً أوراقاً في قمع. يحلمها تيار
 الريح وتلج الزوبعة. زوبعة الأثرياء والاقتصاد الفاسد. شيء كاو يشرق
 في قلبي يتّبع الرأسمالية وشراستها. يُقلّب شيئاً يماثل الخنق والاستعباد،
 يُكهرب شيئاً أحنق سطوة، يخضّ شيئاً تُغضبه الحرية، يرحّج شيئاً يطرح
 اللسع واللدغ. وكليّ تهكّم لأن أصرخ، وكليّ تهكّم لأن أُخالف وأنتفض.

لا يُمكن تحقيق سلام دائم
دون أن يجد جزء كبير من السكّان وسيلة للخروج من الفقر.
محمد يونس

(2)

مع إشراقة الصباح الصّاعق، تلمّست مُشوّشاً غلبة الدواء وكانت على وشك النفاد. ها قد انقضت سنوات شتّى منذ أن توقّع لي أحد أطباء الكلى بالسرطان. أسيؤيد القدر ظنّه ذاك؟ فكرة أنّ شعري ينمرط ووجهي يُجَانَس الموت تُخيفني، دون شكّ، أكثر من فكرة أنّني سأنتهي بالسرطان. إنّني قد غلّبتُ وتخيّرتُ الفشل طواعية. وإنّني قد فقدت بالفعل كل بادرة في علاج هذا المرض الذي لم يتحقّق فيه الأطباء. كان لوثة أصابتنِي، ذلك من مضادّات الاكثاب ومضادّات الدهان. لم يُطالبنِي أي شخص بمزاوله الطيب وثبتّ على أخذ دواء عُشبي بدون وصفة طبيّة. كان لا بُدّ لي أن أعرض نفسي على طبيب كلى سادس ليطمئنّ قلبي. من غير المعقول أن أداوم على تناول دواء لسنوات دون دراية مغبّته المرجّحة. أرجأتُ هذا الفكرة إلى وقتٍ ما. رفعتُ رأسي. عند الباب نسفت الريح شعري ودخلت البنك في يقظة تامّة للقسم الثاني من المسؤوليّة الاجتماعيّة

للشركات، ألا وهو الاندماج الاجتماعي من الناحية الاقتصادية. أستطيع تبصّر تهكّيات الرئيس "نجيب" مع تعالي ضحكة السحالي. وتشمل هذه الجهة المزاوالات التي تقصد صقل حياة الفقراء ومُفَاتَلَة أشكال الفساد قاطبة والمتصلة بغسيل الأموال بوجه أخصّ. يُقدّر الفقر مُعضلة جوهريّة تبطل حياة الأفراد. لا تُخاطر البنوك بمنح قروض لذوي الدخل المحصّور أو العاطلين عن العمل دون مُثول ضمانات لسداد هذا الدين ضمن الفوائد. تسلّلت مُتسوّلة إلى البنك شعبًا مُفرغًا، مُتوسّلة للعملاء أن يُعطوها نقودًا لعلاج الروماتيزم. وكل ما في هيأتها يرشح عُبنًا وبؤسًا. تُطلقُ شهقات مخنوقة قادمة من صدع لزنزانة الجِيع والمعدّبين. سحبتها "مرام" مخزونة بالظلمة وألقتها إلى حيث الصّقيع والريح والوحشة والعراء. عاد الضجيج المُحرّور يعبث برأسي ويؤذي أعصابي. عاد الكسر المرعب يسحب نفسي. أبدًا بحثت عن السّحر الأبيض الذي يُنقذ البشريّة. ومتى حنّنت في الأبدية، تخطر ببالي حُفرة واسعة، حُفرة غير معروفة العمق. مقصوصة إلى نصفين. محشوة بالثعابين وحشرات كثيرة الأرجل. وأنا محشورٌ بينهم دون أن يكون لي ذنب.

قالت ساخرة تبرز فيضان السواد المعتوه النَّائم في كهوف أعماقها.

"أوساط شعبيّة قدرة"

تمت شرسة وأجاجة:

تُطلِّقُ أفاعيها. " هو كَش "

قُلْتُ وقلبي يقطر دمًا:

" علينا أن نساعد البُسطاء "

كُنْتُ أظنُّها خرست لتغضب، فتأكّدي أنّها كانت لتتجاهلني، كما تجاهلت تلك المتسوّلة.

في تأنّيها مضت مُتوتّرة تُوقظ في نفسها حركات البُورجوازيات. دون أن تكثرث لمشاعري عن كوني من البُسطاء، أنا الآخر. أقبعُ في مكاني كجُثّة ثقيلة. تهيج الليل يستولي على قلبي. أدرك، بعد قضاء الوقت، رُغمًا عني، أنّ كلّ الأشياء مُتساوية، الحياة كما الموت، الأحلام كما عدم تحقيقها، الحرّية كما العبوديّة. أيّ جُرم أتى بي إلى هذا البنك القبيح؟ مثل القلاع المهجورة والمُخيفة. لم أفعل شيئًا سيئًا لأيّ شخص في حياتي كلّها. القلب يرعف المأْمُنقبضًا مُتفرّقعًا وكل خُططي لتحويل العالم إلى عالم أفضل تحتلج وتنتفض. سُرعان ما يتوهج الفسفور من أعماقي. هذا النّظام الذي أسعى لتأسيسه في البنك لا يدمج الفقراء فحسب، بل يروم خريجي الجامعات كذلك. وعن أرقام المعهد الوطني للإحصاء، قُدّرت وتيرة بطالة خريجي التعليم العالي في الربع الثالث من عام ألفين وعشرين بنحو ثلاثين فاصل واحد في المائة مُواجه ثمانية وعشرين فاصل ستّة في المائة في نفس الفترة من عام ألفين وتسعة عشر. يُومئ هذا على أنّ عدد

العاطلين عن العمل رَمَقَ تحوُّلاً غامضاً ومُستمرّاً في الأشهر القليلة الأخيرة. إنَّ بطالة الخريجين ليست مَعَبَّة الشطحات الاجتماعية والسياسية التي حَقَّقَتْ تَقْوِيض الكيان، وإنَّها مآبٌ وخيم لاقتصاد الوطن. إنَّه لحال جِلْفٍ في أيامنا هذه أن نعرث على اسهامات مُلائمة لعائقة البطالة، في ظلّ تسريح الشركات قِسْمٍ من قُوَّتها العاملة. يضمّ التمويل الأصغر المنتجات المالية بما في ذلك المدخّرات والائتمان والتأمين، وهي تُسَاقِ ذوي الدخل الوَطِيء المُتجاهلين من النظام المصرفي التقليدي. أكبر حِصَّة من الأُسَر المُعْدَمة لها أن تغنم على خدمات مالية تفي مُتطلّباتها. بعد ضبط مفهوم التمويل الأصغر وإبانة فاعلية تجسيم الثروة، فإنَّ خمسة وثمانون فاصلة سبعة مُقابل أربعة عشر فاصل أربعة مُستجيبين لدسّ أموالهم في حساب توفير تضامني لمُعاصِدة دعاوى التمويل الأصغر حتّى يقدر الأشخاص في الوضعيات الكؤُودة من إثبات الخدمات المصرفية. في مستطاع البنك أن يعرض على الأشخاص الذين لا يُتَوَقَّع تمويلهم عن طريق القروض المصرفية التقليدية، مع الأخذ في عين الاعتبار ميلهم المُخاطر ومَغيب الضمانات: منتجات الادخار التضامني المستثمرة جُزئياً في مشاريع الائتمان الصُغرى. بمقدور العملاء الأفراد والموظفين والمُستثمرين من المؤسّسات إيلاء فضيلة لمدخّراتهم. أو أن يُنيل البنك قروضاً لمؤسّسات التمويل الصُغرى بحيث يُمكنها بدورها تَقْرِب قروض صغيرة للفتات

المحرّومة والمستبعدة من النظام المصرفي التقليدي. إلى مكتب الرئيس أدخلُ خفيّاً. إنني شبيه بذلك الشخص الذي سُجن، وحُجب عنه الضوء والأمان، وبدأ ينطق بكلمات من غير معرفتنا. يحدوني التمتني المتعنت إلى النّضال، ولكن أمن شأنهم أن يُناضلوا من أجلي؟ كان عليه أمارات الضيق، كأنه شهد مأتم ما، ذلك أنّنا نشترك ذات المتجر الذي نشترى فيه الجوارب. اكتشفت ذلك بالصدفة من التاجر.

"عن أي شيء جئتَ تسأل؟"

أستشوق بارفانه الجديد، أظنّه من ماركة أزارو. قُلْتُ ما أفكرّ فيه:

"يوميات الفقراء هلاك دائم"

"وما شأنك بهم؟"

"أستميحك عُذراً؟"

"ما شأنك بالفقراء؟"

"لا بُدّ للبنوك أن تُشاطر في النّضال ضد الإقصاء الاجتماعي من خلال

خلق مُستقبل إنساني"

"تريد منّا أن نُعطي قروضاً دون ضمان لأبسط الناس؟"

"خلق مواطن شُغل وتعميم السّلام واجب"

"لأي شيء تأتيني بالسّخافات دائماً؟"

"السّخف ألا يجد أحداً شيئاً ليأكله في حين يُبذّر آخرنا كلّ ما يملكه"

"عش حياتك ودعك من خلق السّلام للفقراء"

"أنا قريب من المجتمع المحلي ولديّ موقف إيجابي لإدراج كلّ
العملاء"

"كفاك حمقاً"

"أنا لستُ أحمقاً"

"ولا كلمة"

"أنا لستُ أحمقاً"

"القروض الصُغرى ليس لها وجود في بلدنا"

"دعونا ننشئ لوائح أكثر مرونة ونسمح لها بالانتشار"

"لن أمنحهم قروضاً، فرائحتهم كريهة"

"هم ليسوا بهذا السوء"

"بلى، لن أدخلهم إلى مكثبي"

"إنهم في حاجة إلى من يمدّ إليهم يد العون"

إذا أخذنا أربعة أشخاص مُنحصّصين في حُقُول مُختلطة (الخياطة،

الجماليات، الزراعة، الطبخ) مُستثنون من النّظام المصرّفي التقليدي، مُبادرة

البنك تكمن في إنالتهم قروضاً صُغرى لإنشاء مشاريعهم الخاصّة مما يجعل

من الجائز التصرّف بشكلٍ سوي مع مَأزق البطالة. يُتيح هذا الاستهلال

للأشخاص الذين ليس لديهم أموال بإقامة مشروعهم الخاصّ في قطاع

فيه كَسْب والبدء في نيل لُقمة العيش من خلال الإِتِّكال على معرفتهم

وبمؤازرة خبير هدايتهم حسناً في مراحل المشروع كلها: ضبط تحديات الشركة، تصوير أفكار غير مسبقة، دراسة أحكام سداد القرض، كما يُعزّز العملاء على إدارة أموالهم، بحيث يُزاول دور القائد. تسعى هذه المبادرة إلى تسهيل وصول ما أمكن من الطبقات المعوزة إلى القروض الصُغرى من خلال تحسين أهليّتهم وممارساتهم في تسوية المشاريع بتعزيز التكوين المُستمرّ. إثر إطلاق مشاريعهم، سُيتاح لهؤلاء الأشخاص من خلق عروض عمل وتعيين مُتعاونين عاطلين عن العمل وتمهيد الطريق لإدماجهم في الحياة المهنيّة. هذا البرنامج بمثابة جهاز أُلْعِيّ لمدّافعة الفقر، كما يُزوّق الظروف المعيشيّة، ويرفع احترام الذات. كانت سنغافورة، مارقة، في وقت ما، استشرى فيها البؤس والخصاصة وكل ألوان الجرائم. كان تقويمها خيالاً. لكنّ رئيسها دُلّل أنّ الخيال يجب أن يكون حقيقياً، من خلال الالتفاف على الجوانب الإنسانيّة، أعطى الاقتصاد والتعليم شأنه، واسترخص، في المقابل، مكانة السياسة وأنظمة الحكم. إنّ تكوين الإنسان أخلّق من الإنشاء له.

" يُجيزُ للفقراء بحماية أنفسهم في الحالات الأكثر هشاشة كالمريض والكوارث الطبيعيّة"

وكان هذا المقترح يُضحكه. " أنتَ من أولئك المغفلين الذين يُريدون تغيير العالم؟"

"أنا لا أسعى لتغيير العالم بكمّ ما أنا أسعى إلى تغيير نفسي وأنفسكم"
"الفقر طبيعة كونية"

"الاعتراض على مُساعدتهم جريمة"
"إننا نُساعدهم من خلال تقديم قُروض كُبرى لبدء المشاريع
وانتدابهم"

"بدلاً من ذلك، يتمّ استغلالهم من قبل من هم في السّلطة"
"كلّاً أيّها المقلق الصّغير"

"من الضروري خلق استقلالهم"
"أنت غريب الأطوار"

"إني أناشد السّلام"
"ناشده في بيتك"

"أيها الرئيس؟"

"هل لديك أي مقترحات ساذجة أخرى؟"

لا أستطيع مزيداً من الإهانات، قُلت:

"أريد أن أحمّد عن طُرق مكافحة غسيل الأموال"

مع تضاعف هيمنتها، تسعى الرأسمالية إلى كسب المال بأقذر الطرق، بما في ذلك المخدرات والمواد الإباحية والأسلحة والاتجار بالبشر والاحتتيال. كل شيء مُستباح شريطة جلب المزيد من المال بكلّ الوسائل، وعلى حساب الدمار البشري.

راح يلهث ويهتزّ حتّى بدا صوته مُحطّمًا:

وشك المسكين أن يُغمى عليه. " اذهب إلى سي " سلمان "

داعب ربطة عنقه التي تصل إلى كرشه المنسكبة.

يلوك اللبان.

قلتُ لستُ واثقًا من ردّة فعله:

" بارفانك من أي ماركة "

" أأعجبك؟ "

" إيه والله "

" بارفان أزارو وانتد "

" لويس ازارو نشأ في تونس وانتقل إلى باريس في سنّ السابعة

والعشرين "

" وبعد "

" لو بقي في تونس لما ساعدته البنوك على تأسيس وكالته وداره "

" وبارفانك من أي ماركة؟ "

" بلو دو شانيل "

" إذا تصدّقت بِنقود عطرك للفقراء، واشترت عطراً من الأسواق أما

كان أفضل لك؟ "

" إنّه هديّة عيد ميلادي "

وصلت أصابعه إلى البخاخ من درج مكتبه وعطّر فمه.

قال "آفة"

أجفَلتُ بُرْهاتٍ من الزمن وتأمَلتُ وجهه الأربعيني. شعرتُ بضرورة إلى الصّياح. ولا أدري ما يُمكن أن يُصيبي بعد هذا التصريح. أُخَلِّص إلى المعرفة أنّ الإنسانِيّة مفقودة في مكان العمل وخارجه. وأنّ عبارة "الفرد للكُلّ والكُلّ للفرد"⁽¹⁾ محض كلمات لا تعني شيئاً أمام الرأسماليّة. مَغيب التماثل بين الناس أعقب عنه مزيد من المرارة والاستياء الطبقي. هذا النّظام البربري والمرعب لا يُريد من العالم إلاّ التّعاسة وتهميش مناهجه. فشل حتّى في تسوية وضعيّة الذين اندمجوا في الحياة العمليّة. حقّق لهم الظلم والصّمت القاتل. أتأمّ عن إنحيازه للأثرياء الخراب والجريمة وخلل اللوائح. فضلاً عن المضرّ التّفسي والإنتحار. في بلد لا تُديره دولة، بل رجال أعمال وعاصمتهم، أسعى جاهداً، لِبسط شيء من السّلام، بحيثُ تُصبح الحياة أقلّ قسوة، وربّما، أكثرُ قبُولاً. لقاح الرأسماليّة يكمن في تبني برنامج المسؤوليّة الاجتماعيّة.

"لن أتي يوم الجمعة"

"لأبي شيء؟"

"سأقابل فيه مؤطّري"

"سأشناق إلى تُرّاهاتك"

وينتهي الأمر بخروحي.

(1) "Un pou tous, tous pour un", SOME Yves

مع اندثار دوافعي، ومع تقصّف عقلي، العليل، وتمزّق عصبوناتي، أضحيتُ غير مُهتَمّ بإثبات نفسي. ينتابني شعور مثل الحُرُوق قي رأسي. سحبني "إدريس" الأهوج حارًّا من ذراعي قائلاً مُشتتًا: "ستنسخ لي حفنة الأوراق هذه" شدّد كثور المُصارعة المخنوق يغوص في دواخلي برُعوده:

شُعاع عفريتيّ ينطلق من عينيه. "أريدها مُستقيمة"
أجبتُ مغلوب على أمري كغيمة مُجهدة:

وكان لصمتي ذلك العصيان إياه. "لماذا لا تنسخها بنفسك إذا كان نسخي لا يروقك؟"

يقتلُع منّي الأمل والشُعاع والبصيرة. "ولا كلمة"

لو أخذ الله القوم الذين يُوزَّعون مشاكلهم لعاش النصف الآخر في سلام. والله وحده يعلم كمّ كان يُمكن لأمنيّتي أن تذرّ السّلام أكثر حتّى من برنامجي السلمي. وعاد الضجيج مُرتفعًا مُلتاعًا رعدة ماحقة. مشحونًا بالزعيق والأسى. الضوضاء لا تخفت. تلتصق بأذنيّ كوطاويط ماصّة للدمّ. الضجيج الحاد أصبح سُوقيّ الطلق. يسقطُ على رأسي بهراوة مشبوبة. أنا طائرُ قُصفت جناحاه. أي شيء أفعله في مكان ليس منّي ولا أنخلّص منه، سوى أن أظلّ فيه مكسور الصّوت والأمل والإرادة؟ وُجودي طحلي لا يُنتج ثمرات. أستميتُ في تحطيم سلاسلِي، أجاهد أن

أفكَّ معوّقاتي، أسعى إلى نسف ضوابطي. وفي داخلي رعشة لأنَّ أضرب شيئاً ما. يخضّني ميلٌ لأمزق شيئاً ما، لعلّه وُجودي. لاحت "ميرا" لأمبالية وغير متّحيّزة مثل قنديل تهّمه مصالحه فقط.

"ستعتاد الأمر"

"هذا سمج"

"كُلُّنا مررنا سابقاً بما تمرّ به الآن"

"لا ينبغي أن يُعاد مع كل مُتبصّ"

"هذه الحلقة لن تُكسر"

"سأكسرّها بنفسِي"

"ولا كلمة"

"أنتِ الأخرى؟"

وابتسمت. "أفي مستطاعي التركيز على عملي؟"

لقد فهمت، على الفور، أنّه ما من مجال للمُحاولة، وأنّه لم يبق لي أي خيار آخر. ينقبض قلبي هشّاً. أشعلت فيّ مدافع الحقد المُستعرة. متى ينجلي هذا الكابوس وأصير حُرّاً. كان لا بدّ لي أن أُطلق صرخات مدويّة لئلاّ ينجس غضبي. لقد ملكتُ الإفلات منه. وكان الصّمت أبداً فضيلتي. كانت "ميرا" من هذا النوع من الموظّفين الذين يُمكنهم إدارة البنك بأكمله وكسب راتب ضئيل بابتسامة عبد. أشعرُ بالمراقبة،

والمراقبة. وإنني خائف مما أدريه. ظننتني مُتخَيِّلاً. أعرق حاراً من مساماتي كلها. ليس هذا الشعور نابع من طيف الفُصام وحرقة لأعصابي، ولكن من الحقيقة المُقنّعة أنني تحت الرصد وقذائفه. إنني أحُدسُ أكثر مما يقدره أي شخص آخر. ولكسر هاجس المراقبة قُمتُ بعمل بخديعة، لما انبرت "ميرا" إلى قفص البارون كسهم، نأيتُ بنفسي عن عدسة الكاميرا الراصدة والدُخان يصعد عند رأسي، أشتّم رائحة البارود. ماهيّ إلا بُرّهاتٍ، حتّى ترامى إلى مسامعي طرقات خطر لحذاء الرئيس، تتّجه كرصاص رشاش نحوِي. كنتُ أعلم أنني مُراقب. لا ينبغي لي أن أتجاهل حسّي الداخلي حتّى لو كنتُ أصطرع شبح الفُصام وجراحه. لا يُريدني أن أُلَس شيئاً ولا أن أعرف مما هو مخفي في تلك الصناديق الضخمة. لكنني وقعتُ على ملفّ لأحد أبناء مدينتي الذي صار فجأة مالِكاً للمال. أذكُرُ أنّه كان مُجرّد حلاق ماهر وبسيط. واليُتُ قصّ شعري عنده. ألقى بحباله على أبناء النظام السّابق واستولى على أراضي عامة الشعب، فاستخرج منها الكُنوز والياقوت. ألبنك دراية عن ظلّمة أمواله؟ أَسْتَنْظَرْتُ لساعات أمام مكتب البارون "سلمان" وثمّ أيام شتّى، كأنّ هذا البارون سيضبط بدوره حُكماً مُنصفاً في حقّي، لكنّه في كلّ مرّة، كان مثاليّاً في إسقاطي ومثالي الهزء بي. ثمة شيء تهشّم بيني وبين هذا البنك، أجهل كنهه، لا أعرف متى وكيف. في كل مرّة تُباغتني صفة مُجلجلة تطرق بي على الأرض.

يتشظى هذا الكسر ثانية وألبث على وتيرة واحدة وسلسلة مُتواترة من الانكسارات. أقبع مأخوذاً. يتلامح حالي كما لو كُنْتُ مبتوراً عن الحياة العمليّة. أنا أدرك تمام الإدراك أنّ معظم الذين سبقوني من جيل إلى جيل ومن يُعاصروني قد استهلكوا عناصر الحياة كجراد جشع يرشح حنقاً ولم يتركوا لي شيئاً أستفيد منه. أو حتّى أفعله. فسواد البنك كان بارقاً ولم يكن ذا قيمة قط، وأبدأ لم يكن يستحقّ ذلك العناء. أطوار البنك ليست ما أتمناه، وأنا في أسوأ حال، ليس في مستطاعي أن أجد أبجديّة علاجية لوصف ما أنا عليه الآن. أنا أحرص كعبوة موقوتة ترتقب متى تنفجر. أرى الأشياء ضبابية. رأسي ثقيلة. ألم رهيب يسري في جسدي كلّهُ، كنصل سكين ينغمد ببطء بلا شفقة. ألم لا يُفارقني على الإطلاق. أقبع أسيره. وليس ثمّة قوّة إعجازية لانتشاله من أضلعي. فكثُرَ أضحووا يرتئونني مُنعزلاً، حَجولاً، لا يُجَبِّد الانخراط والاختلاط والاندماج وبأنّ هذا غداً طبعي، ويا ليتهم يُدركون ثقل مهانات البنك التي تتمسك وتزاحمني في جسدي وتطوّق عقلي، وتُشَتّت بصري وتغيم بصيرتي وتُحيلني أبلهاً لا يُطاب رفقته. أنساءل عن الخطيئة التي أتيتُ عليها لألاقي ما لاقيته من هشيم جسائي واعتلال روحي في هذا المكان الشيطاني، ولكن كل شيء يقول لي أنّ الظلام قدرني والتهيه نثيتي والانكسار نديمي. كمّ خاب أُملي في هذا البنك، على سائر الأصعدة، وعلى قدم المساواة، في البيئة والإقتصاد

والأخلاق، ولاسيما خاب ظني في الوصر وفي الإنسانيّة المصطنعة والنفاق وعدم الكفاءة والمهاترة والخبرات الزائفة. ووحدهم الفقراء وخرّيجي الجامعات لهم عظيم الضير في هذا كلّه. هذا الشباب المضلل الذي لا يعي علامٌ وُجد؟ وما الطائل من بعثه؟ وما جدوى مهمته؟ أليتحبّط في عتمة مكابدات لا حصر لها؟ أم ليتفرّس في ما يجد وفي ما يطرأ ويكنّ عاجزاً ومُصنفاً ومُكبّلاً دون أن يصنع شيئاً؟ ودون أن يعي بمكنون دواخله أحد؟ هذا الشباب لم يجد من يُرهِف السمع إليه. ولم يُصادف الاحتواء ولا الانتماء ولا الإرشاد. وجلّ حقوقه مهضومة. كما أنّه لم يربح شيئاً من اللوبيات التي تحكمه غير تنامي وتضخّم مساحات من الحُلُكة والحنق الخام. تراكمات فظيعة من الأجيال العبثية السقيمة. لقد استنفدت الأجيال معظم مقومات الحياة. سيُدوّن التاريخ، وإن لم يتمّ تزويره على جري العادة، أنّ الشباب الحالي، ولاسيما جيل الثمانينات والتسعينات، قدمات بالفعل منذ نشأته، وما تبقى منهم جثة هامدة تستجيب لمتطلبات البقاء. هذه اللوبيات المُقرفة تُدمّر كلّ شيء. لا أعرف كيف يغمرهم النوم كلّ ليل.

قال البارون "سلمان" بصوته الأَجَشّ والصّاعق:

"عن ماذا أتيت لتسأل؟"

"عن غسيل الأموال"

كأخطبوط شرس على سطح البحر يهتز. أحسب أنني قد أيقظت فيه شيئاً لولبياً وفساداً لا يُريد التحدّث عنه. تبييض الأموال يتمثّل في إخراجها من أصلها الإجرامي إلى صيغتها المشروعة. بشكلٍ آخر هو خلع السُيولة من نجاستها. إنّها نُقود لا تعرف عقيدة أو فضيلة. عائدات الدّعارة والاتّجار بالبشر والأعضاء والأسلحة والمُخدّرات. يجعلها المصر في لا تُقرُّ بطابعها الإجرامي. كتلاعب بعيّنات البول في قضايا الكوكايين. ينطوي الغسيل على ثلاث مراحل. التنسيب: القصد هو نقل الأرباح غير المشروعة إلى ودائع بنكيّة مُقسّمة. أو شراء سلع فاخرة وتدليس أوراق الميسر. التشتت: إكّنان التقلّات التقدّية ذات المعاملات المُعقّدة لأدنى حدّ من إمكانيّة التّعقب. والتكامل: الاستهلال في الاستثمار بصُورة قانونيّة في أي نشاط من المحتمل أن يكون بمثابة قِوام لتكوين ثروة جديدة. بغضّ النَّظر عن ضحاياه الأبرياء، فإنّ تعزيز غسيل الأموال يُؤدّي إلى عُفونة الحكومات.

قال ملسوعاً ومُتضايقاً:

يتسرّ عن نوات صوته المتلعثمة. " تكلم "

" أردتُ الإستِغلام عن قوانينكم المُعتمدة ضدّ غسيل الأموال "

" البنك ينصاعُ إلى كلّ الإلتزامات القانونيّة والتنظيميّة والماليّة "

" كيف؟ "

يُجيب كأنه مسكون بالعتمة المكهربة:
نظراته عقارب تنتظر اللدغ لم يكن قط أكثر تعرّفاً. "نُمارس مهنتنا
بأخلاق جيّدة"

هذا البارون أحسب أنه يستغفني حتى أبلى
يسعى إلى التملّص من كل أسئلتني. "نكفل تنسيق وتصويب
المشاريع"
"لم أفهم"

ينظرني كعبء يتعيّن التخلّص منه.

"نضمن رقابة قانونيّة دائمة"

"ما هي وسائلكم في الرقابة؟"

"وفقاً للوائح المرتّبة لمفاتلة تبييض الأموال وتمويل الإرهاب"

"خبرني عنها"

أطفأ الأنوار عني دُفعة واحدة بوقاحة:

"الولاء والنزاهة والحياد هي المبادئ الأساسيّة التي يجب على موظّفيها

تبنيها"

ليس في هذا إذن ما يدعو إلى دوام النقاش العقيم بيننا. ودّعني وصوته
كجوقه راعدة. إلى الخارج أنساب مُنتفضاً. إنّي ألتمس الخيط دون هداية.
وأشهو. عند المدخل الخلفي جلست أفترق إلى التّباهة. رأيت أحد

المسؤولين عن جلب المخدرات والأسلحة يُودع قسيمة مالية في البنك، دون أن يتأكد المصرفي الرئيسي من نشاطه ولا حتى أن يتحقق بشكلٍ منهجي من مصدر الأموال. كانوا هم أنفسهم الذين سعوا إلى قتليني وقتٍ ما، لكنّ القضاء برّاهم بدفقة البقشيش الذي دُسّ في حقائبهم. تنبّه إلى وُجودي. ترامقنا في حقد. حسبتُ أنه سيُخرج مُسدّسه ويُطلق النّار نحوي. هذا البنك يخرق كل الأعراف الأخلاقية والمهنية.

أُستاذي المُوطر الأكاديمي بالكلية الفرعية ذلك أنّي

حسبتُ أنني أُجنّ ويُعاد بي إلى مُضادّات الإكتئاب ومُضادّات الذهان،
مُجدِّداً. مسؤولاً الماجستير كانا في صفّي. عاودني الماضي ليُثبِت لي أنني هذه
المرة لستُ وحدي. حادثتي كانت الأولى من نوعها. وكلّ ما خبرته كان
سابقة في تاريخ البشريّة جمعاء.

مسكوناً باليقظة والعدوانيّة أخذ مُؤطّري الأكاديمي قلمًا أحمر وطفق:

في الشطب بحركات ساذجة

"هذا معيب"

"أين العيب؟"

"بعد كلّ فقرة، ضع عنوان المُقتطف وسنة النّشر ورقم صفحة

المُقتطف"

"لكنني لم أنسخ شيئاً"

"هل تُريد أن تُخبرني أنّ هذا كُلّه قادم من رأسك؟"

"قرأت الكثير من الكتب والمقالات وصنعتُ مفاهيمها بمُخيلتي"

يضحك بطبعه الغوغائي. "مُخيّلة؟"

"الكتابة العلميّة كما الكتابة الروائيّة"

"أُكتب رواية؟"

"خمس روايات ومجموعة قصصيّة أتلفتها"

"أين نُسخي؟"

"لم أنشر بعد"

"لأي شيء؟"

"النَّاشرون يُريدونني أن أنشر على حسابي"

"ذلك أهمُّ يُشكِّكون في مدى نجاح أعمالك"

"أنا أثق بنفسِي"

"الثقة بالنفس لا تجلبُ النجاح ، لكنّ الدَّعم المالي هو أساس النِّجاح"

استطرد وكان أبداً مضغوط النظرات

"أعد كتابة بحثك وفق المعايير العلميّة"

"سمعاً وطاعة"

"حلل موقف البنك في إطار المسؤولية الاجتماعية للشركات"

"موقفها مضللّ، تمارس فنّ التخصير الغسيل الإجتماعي"

ثمّة شيء غامض في مؤطّري الأكاديمي، ألا وهو لا يبني عن إطلاق نظرات التحديّ الملتهبة والمُخلّة بالأداب. نظرت إلى نفسي مُرتجفاً وتساءلت في سريري عن الشيء الذي يُدعى وجود. ثمّ وعدت نفسي بالأكلّف نفسي عناء ابتكار المفاهيم. وأن أعتاد على الوضع وهزّاته، على حدّ سواء في الكلية أو في البنك. لقد تعرّثت، بشكلٍ غير ملحوظ، من التعب إلى الحزن الذي لا يُطاق. كان لهذا تأثير كبير على حياتي وقليل من دائرة علاقتي شيئاً فشيئاً، إلى أن استحالت عدماً. توجهت إلى غرفتي وأغلقت الباب. اعتراني شعور رهيب بالغبن والمرارة، من دون سبب.

كنتُ لا أرغب في كتابة أي شيء. وأفتقر إلى الطاقة للقيام بأدنى جهد. وعلى الرغم من سني الصّغير، أشعر في كثير الأحيان بفقدان الشهية في الوقت والمبادرة. لا أعرف أين أنا بعد الآن. كنت بحاجة إلى شخص يقف بجانبني ويساعدني وإلا فإنني سأتسبب في هدمي مُجدِّداً. كأصابع ديناميت مُحترقة رنّ هاتفي مُنتفضاً. قرأتُ الرسالة "أترغب في الذهاب في نزهة على الأقدام؟" كان المرسل "هالة"، وخرجت ضياعاً.

قالت مستاءة:

"نمّة حياة اجتماعية من حولك وما فتئت تشعر بالوحدة رغم كل شيء؟"

"أنا أبداً مُنفرط عن السرب"

"أليس لديك أصدقاء للترفيه؟"

"لدي أصدقاء لكننا قلما نلتقي"

وطمستُ حقيقة أنني قطعُ علاقتي العفنة بالجميع ذلك من القرف الذي أشعر به أثناء وجودي معهم.

تكهرب شعري. يطفو مناخ من الرطوبة في هذه المدينة السامة والمسعورة. أمقت الرطوبة المُفترسة.

قالت:

"أحدس أن فيك فجوة اجتماعية"

"حدسك في محله"

"لكنك تبدو اجتماعيًا ومُحبّ مُعاوَنَة الناس"

"إني أجدُ إغْتِيَاص في التواصل"

"أجد أنك تتواصل بشكل جيد ولكن عليك أن تبحث عن أَرْضِيَّة

مُشتركة تُؤكِّد لك شعورًا مُشابهًا"

أخذت اعتياد أن أتمطى على فراشي وأن أديم النظر إلى السقف لساعات. لا ألحُن شيئًا أحيانًا، وأحيانًا أخرى أشعر بالأسف على نفسي. أخرج إلى الشوارع ليلاً أنسى آساي، أتنزّه كما يفعل أي شخص آخر، ولكن ما من شيء في الخارج، هنالك ناس يخدعون بعضهم، يكيدون لبعضهم في العمل، يؤذون بعضهم في مجالات مُختلفة من الحياة. أنا لست مثلهم، يُقلقني هذا أحيانًا. لا يُمكنني أن أُنخَبث أو أتلاعب أو أُوهَم أحدهم بمشاعر كاذبة ومن ثم أفارقه بشكل سخي ومثير للغثيان، من دون أن أكرث بالأذى الذي من شأنه أن يطاله أو حتّى ما إذا كان حقًا مُصائبًا في قلبه. لا أعرف أنني للناس أن يعيشوا بمثل هذه الطريفة. كنت أفكر في الماضي وأشخاصه ومصابي. ذات حاجة للنُصح، أسدى لي أحد الكرام عِظَةً، كانت بقصّ علاقتي مع الماضي بكلّ ذكرياته، ممّا يعني، حتّى لو جاءني شيء من الماضي مُتنكّرًا في هيئة أمنيّة تحققت أو شخص آخر مُشابه، فلا بُدّ لي من الرفض. لا خير في شيء أحدث لي الألم لأن يأتي منه الخير فيما بعد، حتّى لو كان في ظاهره الخير، نهايتي ستكون مؤلمة كئيبة.

إني بعوز لأن أقطع صلتني بكل الأشخاص الذين كانوا سبباً لتجربة الأحداث مفاجئة، الأشخاص وما في حكمهم. إني بعوز لأن أعرض عن الماضي، نهايتي ستبدأ من تكرر تقبله.

"ألم تقل لي أنك تكتب؟"

"إيه؟"

"الكتاب هم أناسٌ يُساء فهمهم فيلجأون إلى الكتابة"

"ماذا عنك؟ خبريني عن هوايتك"

"الرسم"

"أنت مُتعدّدة المواهب"

"كلا"

"الحياة لا تدور حول العمل"

"الموهبة لن تجلب لك المال"

"إذا كانت لديك موهبة، فعليك إظهارها للعالم"

"كلا، ليس لدي موهبة، أريد المال فقط"

"عليك أن تؤمن بنفسك، متى تؤمن بنفسك سيؤمن الجميع بك،

الحياة تعني الفنّ وليس العمل والمال"

"إني أريد المال والسكينة"

السكينة.

يحودني يقين بأنّ السكينة الوحيدة تكمن في مستشفى الأمراض العقلية. لا يكون هنالك -على الإطلاق- أدنى إحساس بالعراء من العالم وضحجه وحقاقته، ولا من ذكرياتي الوعرة، ولا من فخاخ الناس الذين يفرقون عني باطلاً في كلّ شيء. سأخضع للصّعق الكهربائيّ، والعقاقير، فتخفّ حالتني. لن أتلامح فاقداً للوعي مُتخنّاً بجراحي، لن أحسّ بالرهبة، وسيكون عقلي مُنتظماً، سأتغلّب على هذا الكسر والانفصال والسيّاط.

أخبرتُ "هالة" عن فشلي الخفي، خلف البريستيج، إبان هدياني الفسفوري، المؤتلف، لذلك كان ردّها حاداً:
"ما تريده؟"

فأجبتها مُتثوّفاً:

"أن أعرف موقعي من كلّ هذا"

أشرق وجهها عن إبتسامة وانبرت تقول:

"يبدو أنّك لن تكون قادراً على فعلها، ألا تعلم أنّ كلّ الذين فارقونا

قد عرفوا بقاعهم عقبى رحيلهم"

وتلو هنيهة أردفت محشوة بالسكينة:

"أحسب أنّك تخزن في بواطنك أفكاراً وقصصاً اجتماعية ليست سيّئة،

يُمكنها أن تكون رواية قائمة"

"أعتقدين أنه يُمكنني كتابة رواية عظيمة؟"
فقلتُ ضاحكة مُدارية خرقها وارتياها:
"فلسفتك داخلية وسوداء، ذلك أنّ الكتابة تُولد من العُزلة"
"أتحاشى الاختلاط بالناس"
قلت بنبرة مُكهربة مشكوك فيها:
"ما الذي يمنعك من الاختلاط بالعالم الخارجي؟"
ويحدثُ أن تمرّ بي لحظات ثقّال ذبّاحة، كهاته، ويغدو كلّ شيء غائماً في
عينيّ، فأتهجّج وأسعل بوحشيّة.
أستطرد قائلاً تلکمني الأمواج المُشتعلة:
"عاش مُعظم الروائيين في حالة كآبة وهوس لا يُحتمل"
قلت باقتضاب كطلقة نارية:
"أتشوّف بحياة مُظلمة؟"
أجبتُ بنبرة قائمة أبداً:
"ألا ترين أنّنا نشتغل في ثكنة إرهابيّة وعممة قاسية؟ هذا في حدّ ذاته
قتل بطيء يجتذب الموت"
عيسنا، لذلك اتّخذتُ حُكمي بالإشارة إلى ضفّة السّماء الملبّدة بالغيوم
غير المؤذية. في هذا البنك وجلاديه وكرنالفالاته، نبيع أنفسنا، ولا
نشترها، حتّى بأبخس الأثمان. الرأسماليّة ترأسنا، حتّى أخصّ قدمينا،

دون أن ترأف بنا. هو هذا بالتحديد مأتى فقداننا لذواتنا. نناوش الأنظمة السفّاحة، المنحازة للأثرياء، وقلة الحيلة، والنضال اللامجدي. نقلتُ لها أنني أكتب لتسوير الرئيس والبارون وكسر مقصّاتهم وكلاشنكوفاتهم وتفجير ثكناتهم. للتلصص على حيواتهم المعلّبة التي يخشون سبرها. لأحلّق بمنأى عن وجودي المُتردّد. لتقليل حُزني. لتبديل المُحادثات التي حدثت بيننا وجعلها لصالحِي. لأجرب حسّ الرئيس وهو يُجرّكنا بشرائط من أوراق نقدية. نظرتُ في حالة يُرثى لها. كنتُ في أردادٍ حالاتي. أكتب صيحاتي وفرعاتي. لاسيّما بعد أن تذكّرتُ سوأتي وكلّ الصّراعات القاصمة للظهر.

حواجبها معقودة في حالة من العدائية المُستترة:

"هل تختار أن تكتب بالطغيان؟ أصبحت مثلهم؟"

شعرت بنوبة من العريضة المضحكة كسمكة قرش تحملها زوبعة:

"أربطين الكتابة بالطغيان؟"

"لا تُموّل سُؤالي وفق مشتهياتك، لديّ إكرامًا للكتابة وأحترم

الرّوائيين، لكن نظرتك إلى الكتابة كجسر إلى الطغيان، أثارني فعلاً"

قُلْتُ مع التّعجب العميق قبل أن يركض بي الصّمت

"إنّ تعالي يكتب مصيرنا كما يكتب الرّوائيين أقدار أبطالهم"

لم أجادها لوقتٍ كافٍ، ذلك أنّها ببساطة لم تكن قانعة عمّا تُريد أن تُميّزه،

لكنّها ناهضت بأن أقرّها بما يجول بخلدِي، ما الذي يكبس أعصابي؟ ما الذي يُوسّخُ صفو مزاجي؟ لكنّها لم تكن لتتعلّق تدفّقي فعلاً.

قالت:

"دعنا من المواهب، ما الذي كُنْتَ تصنعه بمكتب سي "سلمان" صباح أمس؟"

"حدّثته، دون جدوى، عن وسائل تبييض الأموال"

هَبَاءً انفجرت ضاحكة حادّة مثل شبح مهتاج:

النّار مشبوبة فيها. "أأنت جاد؟"

"ما يُضحكك؟"

ردّت بقرف. "إنّه الراعي الرسمي لغسيل الأموال"

خَمِنْتُ. أدركتُ ذلك على الفور. لديّ حدسٌ غامضٌ لما يُحاول

الأشْرار تَضْلِيلُهُ دائماً حتّى أنّه يقوم بتحويل القسائم التّقديّة إلى حسابات

الأشخاص البُسطاء الذين سيُقدمون طلباً لتَحْقِيق الفيزا. وهو يعلم

ضمناً أنّ لا حُظوظ لهم لئيلها، لكنّه لا يني عن الإِتِّجار بأحلامهم بأخذ

ألفي دينار عن كلّ واحد منهم.

لا تقوم الأمم ولا تُبنى الحضارات
إلا على أكتاف المرأة
جبران

(3)

الأم أبديّة، على غرار كل ما عداه. بعد أن أحجمت عن المزايدة على
عُلبة دواء ما بعد الأربعين، عاودني الألم. أبداً لا ينخلع عني. لكنّه أخفّ
وطأة من السّابق. في عُداة غد، لم أكن أعرف ماذا أرّتدي. تسرّبت بلون
الشعور الذي يغمري، ممّا يعني الأسود. اصطفتُ قميصاً بلون الرُبدة
الرقية. كأنني رائح إلى مَيْنم وليس إلى أحد البنوك الكُبرى. في طريقي
ضربتُ موعداً لدى طبيب الكلى عقب الظهيرة. إلى مقرّ تربّصي أصلُ.
كان قلبي ظلاماً دامساً. ما لاحظته، أنّه ما أن تطأ قدماي باب البنك،
حتّى أفارق حياتي ووقتي وكرامتي، على الجانب الآخر. إنّ أجمل الأحلام
طهارة، تصوير في هذا البنك، غير طاهرة، لا بل أدنس ما يُمكن تحقيقه.
وأعتقد أنّني، لولا النكات مع العملاء، لأُصبتُ بإنهيار عصبي.
ويتعلّق القسم الثالث من المسؤوليّة الاجتماعيّة بالمرأة والتنمية
المستدامة. دعوة لمعالجة بيئة العمل المتحازة للذكور.

ينحسر حدوث تشغيل النساء عن الرجال بالمناصب العليا، على الرغم من حيازتهن للبراعات الواجبة. ذلك أن مالكي الشركة يحدسون أن للنساء مرونة للتخلي عن تعيينهن بتعلة العوائق الأسرية. في هذا البنك غير القادر على استيعاب أخلاقيات الفرد، تُداس حقوق المرأة بأقبح استرقاق. يعملن لساعاتٍ طويلةٍ مُقارنة بالرجال. لقد أصبحت عادةً وواجب وليس فضيلة، دونما تقدير. ما تنبّهت إليه أن كبار المسؤولين يُحاولون طمأننة الموظفين بقناعةٍ تامةٍ أنهم لا شيءٍ وتحميلهنَّ مَحْصَلَةَ كل المشاكل، ذلك أن المرأة تُعدّ الحلقة الأضعف في البنك. إذا زلَّ مسؤول كبير فإن المرأة تدفع مغبّة الخطأ. تشعرُ المرأة بأثما أقلَّ شأنًا وهامشًا وتلج في دوامة من جلد الذات تليها أمراض نفسية مثل الاكتئاب. هل يُعقل أن تشعر المرأة بأنها غير كفؤة بالرغم من السمات التي تمتلكها لا لشيء سوى أنها خلقت كامرأة؟ يتمّ جلبهنّ متى تكاثف ثقل العمل. إنهنّ أرخص قيمة حتى من أبيض الورد البلاستيكي في عرين الرئيس. ظننّ أنهنّ قد تحررن من استرقاق ربّ المنزل فوجدن أنفسهنّ وجهًا لوجه مع استغلال ربّ العمل. في السنوات الأخيرة، انتهت الشركات الأوروبية بشكلٍ خاصٍ إلى نجابة تحديات التنوع. لقد انخرطوا في سياسات تكافؤ الفرص بين الجنسين ومناقحة التمييز العنصري، حيثُ أنه أرومة للابتكار والإبداع وتحسين سمعة الشركة عامّة. من رأسي تنفجر عدة أسئلة عن

تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة داخل مجلس إدارة البنك وكذلك بين توزيع المقاعد؟ ما هي دوافع البنك لتوسيع هذا النشاط؟ أبانت حصيلة الاستبيان الذي أجرته أن ستة وسبعون فاصلة وخمسون بالمائة الموظفين مُقابل ثلاثة وعشرون فاصلة خمسون بالمائة يُؤمنون بصريمة أن للتمييز ضد المرأة حضور في مكان العمل. أهدبت تحصيلات شتى تأثير التعددية بين الجنسين على التصاعد الاقتصادي. تُعدُّ المسؤولية الاجتماعية للشركات آلة مواءمة لتدليل التماثل بين الجنسين في مكان العمل، مع تقديرها إلى ميمنة التنوع كأحد ركائزها الأساسية. ثمّة علاقة قوية بين التفاوت بين الجنسين وازدهار الأداء المالي للشركة. غالبية الشركات التي تحتذي سياسات إدارة التراوح لديها تكهّنات رفيعة فيما يتعلّق بإنتاجية موظفيها.

قاطعت "ميرا" هواجسي الضيقة والمهترئة:

"حصل الرئيس على ترقية وسيُغادرنا"

هزرتُ رأسي وكان تفكيري يتضاءل:

"أحقاً؟"

"سيرحل بعد ثلاثة أيام ويأتي غيره، عليك أن تتحدّث معه بما أنه

مؤطرك المهني"

غمرني الحبور. هذا الرئيس الوحشي يُغرّبُ عنّا إثر أيام قلة. ما أجمل

الأخبار السارّة، ويا لوقعها الملسوع والمثير على قلبي. أثقل الانتظار كاهلي. إنّ وقتي مثل ساعة رمل مُتوسّطة، ينفد رملها حبة حبة. وتدقّ طُبول وأجراس الموت، أقصدُ تصدح لتسلخ عني النور قبل الموت. الظلام كمّ أخافه، بضربات الصقيع الصّاعقة يجعني أتقرقف وأتعذب دون أن أدرك الموت. أنشغل بالتفكير في أمور أخرى برغم كل الظروف. يُصبح فراق مساعيك الساذجة أنبل عمل تُقدم عليه. دخلتُ إلى مكتب الرئيس مُتصنّعًا الاستياء والكآبة على رحيله المفاجئ.

قُلْتُ بعد أن أخذتُ نفسًا يستنزفني من عطره الأزارو:

"عن أي شيء جئتَ تسأل اليوم؟"

"النساء"

وأطلق ضحكة السحلية في حين كان يُنشد أغنية. "النساء، الله يخلّي

النساء"

قلت جاهلاً بكل ما خرج منه:

"تمثّل المرأة رصيّدًا هامًا في المؤسّسة"

غتي ترنيمه حزينة ومُملّة، ملّحودة في الأعماق:

"ما الذي تُريد معرفته بوجه الأخصّ؟"

"ما سبب غياب المرأة عن عُضوية مجلس الإدارة؟"

"أنت مخطأ إتهن كالجراد في كلّ مكان"

"كلّا، أنا لستُ مخطئًا"

"ألا يُعدُّ هذا تميّزاً عُصريّاً؟"

"نحن نُولي اهتماماً بالنساء"

"كيف؟"

"نُوظِّهنّ؟"

"بوضعهنّ في مقاعد أقلّ من الرجال"

"كلا"

"يتعيّن تحديد الأهداف من أجل تعزيز المساواة المهنيّة بين الموظّفين"

"عليها أن تتكيّف مع ما هو مُتاح"

"المرأة ليست ملكيّة لأيّة مُؤسّسة"

"كلّ من وقّع عقداً معنا يُعدّ ملكاً لنا ونحن من نُقرّر عنه مصيره"

"هذه الأنظمة مُحبّطة، وتُولّد العُبوديّة، والاستسلام، وتقتل الإبداع"

"هُنا لا نُبدع، بل نُدخل المال فقط، متى ستعرف هذا يا فتى؟"

"حتّى الدين كرم المرأة ونحن بأنظمتنا نجعلها سلعة رخيصة"

"افهمها كما تفهمها"

"أسعى جاهداً لإدراك قيمة المرأة العاملة كإنسان"

"نكيّف مع هذه الحقيقة"

"تدفع الرأسمالية المجتمع نحو تجسيد الطبقات الحاكمة"

تعكس هذه الاعترافات أنّ البنك ليس مُلتزماً بالمساواة المهنيّة والتنوّع

بين الجنسين. الرأسماليّة حرّرت المرأة دعوة لاستغلالها بموجب امتداد

ساعات العمل والأجور المنخفضة، وبالتالي تفكك الأسرة وخرابها، وليس من أجل الإنسانية وتحقيق السلام، بحسب نداءها. مع انشغال النساء بالعمل، تتولّى المربّيات واجب صون الأطفال، ممّا يعني تصنيع المزيد من الأفراد الذين لا يعرفون المبادئ الأساسية. تدفع الرأسمالية المرأة لتزنى مع ربّ العمل من أجل أن يرفع لها من أجرها أو ترقية يُنيلها إيّاها، وبالتالي إننيار شخصها. من بين مقترحاتي كسر قوالب التعيين التّمطيّة من خلال استقطاب المواهب النسائيّة والسعي لتمكين صورتها داخل البنك. توطيد النساء قبل وبعد إجازة الأمومة بإيجاز ساعات العمل ومنح خيار العمل عن بُعد بوجه أخصّ للنساء الحوامل. إنّي بحرص لأنّ أكسر قواعد التعيين المظلمة للمرأة، إنّي طامع لكشف بقعة الضوء المترقصة في أهليتها، إنّي بطلب لإبطال صلبها إلى الفراش ومصّها، إنّي بتأكيد لإنشاء برنامج سلمي يضمن الاستدامة حتّى للأجيال اللاحقة. لن نزايد الرُتب بازدياد مرّات الفراش، بل بالمؤهلات.

قال ويطنّ المزجّ البج الصدئة:

"ما السؤال الآخر الذي تُريد طرحه؟"

يُحسب مؤسّر المساواة المهنيّة بين الجنسين على أساس أربعة أو خمسة مؤسّرات حسب عدد العاملين في الشركة. يهدف إلى قياس فجوة الأجور بين النساء والرجال، الاختلاف في توزيع الزيادات التكافؤ بين

أعلى عشرة أجور، رفع رواتب الموظّات عند عودتهن من إجازة الولادة، والاختلاف في توزيع الترقيةات.

يقصف النقاش بيننا:

"لا أستطيع مُعاضدتك بهذا الأمر المُعقد، إيّ راحل"
 أو مأت برأسي مُفتعلًا الأسيّة وقلبي يُغرّدُ فرحًا:
 "تناقلوا نبأ رحيلك"

ترامقنا في لعنة. يعرفُ من أعماقه المسحورة أتهم يستنظرون رحيله، ووجوده عبوديةً وعذابًا لهم. ليس له أن ينكرُ هذه الحقيقة المُمرّقة والمخفيّة مثل الأتلاتيد.

"سأحدّث معك بصداحة"

"نفضّل أيّها الرئيس"

"أنتَ إنسان مُهذّب ولطيف"

"يعيشك"

"صديق العمل عدو خفيّ فاحذره"

ليس ثمة صداقة بمقرّ العمل. كلّهم أعداء، لا غير. ولا تأخذ المعلومة الجاهزة مأخذ الصّدق، فعادة ما يقع تغليفها بنية الخديعة. لا تكن بطوليًّا وتشتغل مكان زميلك، فم بعملك وعُد إلى بيتك. لا تتحدّث عن مشاكل البيت في العمل، ولا حتّى عن مشاكل العمل بالبيت. لا تظلم وإن كُنت

مُقتدرًا، كلُّ شيء زائل، ومن ظلمته سينال حقه منك طال الزمن أو قصر. يقول المثل الصقليّ من الأحسن أن يكون لديك كلب صديق خير من صديق كلب. ترامت "هالة" إلى ذهني. تسبح الهواجس والشكوك، لذلك قمت بدرأها من رأسي. إنّها ليست على شاكلتهم. فيها شيء من الحب والطيبة والإنسانيّة. فيها الحنان والبهجة والخير. إنّها فراشة تفتّحت بقلبي.

قال مُودّعًا:

"سعدتُ بتواجدك معنا أيّها المقلق الصّغير"

"لي الشرف"

"أيمكنني التغيّب ثلاثة أيام لغايات شخصيّة؟"

"لكَ ذلك، سأوصي عنكَ "ميرا"، لا تتعامل مع الرئيس القادم"

"حظًا مُوقفاً"

مضيتُ إلى الجناح المصري.

قالت "هالة" مُهتاجة لمعرفة ذريعة غيابي:

"أين كُنتَ؟"

"بمكتب الرئيس"

"لأيّ شيء؟ أريدُ أن أعرف"

"حدّثته عن برنامج المساواة بين الجنسين في مكان العمل"

تذرُّ "مرام" جُنونها:

" أصل التمييز العُنصري في هذا البنك "
 "كيف؟"

تزداد ظلمتها انتفاخًا بالصرخات الكاوية:

"لقد درست خمس سنوات في الجامعة لألتحق بالجنح المصري، وفي المقابل النّاطقون الكِبار هم من الرجال الذين أدنى مني في التعليم"
 فزّت من قُمتها رعدة قَائِظة، وقبل أن تنصرف، نظرت إلى صُندوق
 نُقود "هالة" وقالت ترمي أشواكها:

وحدجنتي بنظرة ماكرة وشريرة. "عندما تجدين نقصًا بحسابك
 ستدفعين الثمن بنفسك"

يا للساقطة المجنونة. لأيّ شريعة إرهابية تنتمي؟ رشق الاتهامات
 يملأها بالراحة. انطلقت منّي ما يُشبه الرجفة. انفجر من الداخل مثل
 رشاش أهوج. كنتُ لا أفرّج عن ذراعي إلّا وأنفخ اللهب من راحتي.
 أتحين اللحظة لأحشره في حلقة حدّ الموت. ليكفّ التّبشيع عن التّدوير.
 ضياعاً أردت أن أدافع عن نفسي المكدودة النّازفة بأنني لستُ لصاً. وكان
 الصمتُ أبداً فضيلتي كما من قبل، لكنّ هذه المرّة كان خطئي الأناني،
 فيمتلئ قلبي غُبنًا. كان هنالك نُقطة كراهية تتسع. خيط من الحقد
 ينسحب منّي.

أردت أن أصبح أستاذاً جامعياً، ومسؤولاً مصرفياً ربيعاً، وكاتباً، ثمّ

قلّلتُ من أحلامي وتخلّيتُ عن خاطر أن أكون أستاذًا واكتفيتُ بحُلم
المسؤول والكاتب، بعد حادثة إبتزاز-دمّرت لي حياتي-وقعتُ فيها من
ما فيا ترأس الكلية. ولأنّني لا أملكُ آلاف الدولارات وليس لي علاقات
في عالم النّشر فقد تخلّيت مع مُرور الوقت عن خاطر أن أكون كاتبًا.
تغ

الأرقام. أَعترف أنني أَسْتَحَقُّ مكاني الذي لا يعني شيئاً. إذا كنتُ قد دافعت عن نفسي لأثبت بالدلالة أنني أثقل كفاءة منهم - حتى من الرئيس - لما كنتُ لأقع في موطئ سخي، حتى أقل قيمة من أصيص الورد عند مدخل البنك. لقد كنت أسعى، على أن أكتم أعصابي من أجل نيل أدنى معلومة، والمضي قدماً في بحثي، وأسعى على ألا أنهار كورقة خريفية هشة، بل أشرب لترًا من الماء. علي أن أكمل تربصي، بقوة غير معتادة، وبأضرار أقل من قليلة، وبأية حال. حتى عملي الطفيل والمُغفل لم يسلم من شرهم وجرّوني منه. جرّمتُ بضياع ملف عميل. وكل ما فيّ لا يني عن التدليل بأنّ هذا الملف لم يأت لنطاق بصري. تلاشى الملف ليثيروا البلبلة عني، حتى أفقد الثقة بنفسي، وحتى تُقبّح صورتي ما أمكن. طلبني "إدريس" لنسخ أوراقه السخيفة مُجدِّداً، فانزلتُ مُهرولاً إلى مكتب أخصائي أمراض الكلى. ما كان الطيب موجود في عيادته. انزويتُ إلى الكنايهه مُتألماً وبى بُغية إلى التبول دون أن تكون مئنتي مُمتلئة. مازجني صوت يحثني على اللوذ بالهرب ورؤية طبيب آخر. ما عشته سابقاً يُعاودني اليوم. الماضي لا يني عن تكرار نفسه. يُعاد الماضي متى لا تفهم الدرس أو الإشارات، لكنّه ما فتى يزورني بيد أنني قد حفظت الدروس كلّها عن ظهر قلب. جاءت سيدتان تحملان عُلبه حلوى وكان حضور الطيب على إثرهما. ما كان الطيب ليأتي بوميض البرق دون قدومهما.

تجاهلني تمامًا واستقبلها قبلي. على الرغم من أنني في ألم. ما كانتا السيدتان مريضتين، بل كانتا سيدتين زائرتين جاءتا لقضاء بعض الوقت في عيادته. لا فرق بيني وبين الكرسي أو حتى أصيص الورد البلاستيكي. ما كان يتعمّم أن أذهب إلى طبيب بعد كل الأذى الذي لحقني منهم. ترامقنا أنا والسكرتير في استياء. ما فتئت تُرسل نظرات تُخبرني من خلالها أن أثور على هذا المشهد التنكّري الحزين. وتمرّدتُ.

وخلال دقائق أخذني إلى الداخل وقح الحركات، وفمه مليء بالمُرطبات.

لهجته المتهكّمة والشرسة تقتحميني:

"ما سبب مجيئك؟"

حكيتُ له من فوري وبُعجالة عن كلّ الآلام التي خبرتها في وقتٍ ما، إلى الآن. وبوجه أخصّ عن العقاقير الخاطئة.

قال بعصبية:

"أأنتَ متزوِّجٌ"

"كلا"

"هل تُكثر من العلاقات الجنسيّة؟"

رغبتي تُجاه الجنس قد انطفأت، ومكثت على طهارتي وعُذريّتي. "لم

أفعل شيئاً بعد في حياتي"

وما أخفيته عنه، كان، أنني ملوَّث بالوسواس القهري منذ أن أدركتُ سنَّ السادسة. ما في مستطاعي المرور بأشياء بحجمها بتسهيل. وكلَّ ما خبرته، كان، يقتصر على القبلات المحمومة، لا غير، ولأربع مرّات، فحسب.

كان الطيب يخال نفسه "فرويد" زمانه لتوثيق الأوجاع الجسديّة بالقضايا الجنسية. ومع ذلك أكان على بينة من أنّ "فرويد" لم يخض هو الآخر - قبل زواجه - علاقة جنسيّة واحدة. وبهذا الشكل يمضي عقله إلى خلط الحابل بالنابل. كان أيضًا مُرتبطًا جدًّا بوالدته. اللافت أنّ هذا هذا الطيّب لا يفرق شيئًا عن عقده التّفسيّة مع "فرويد". نُقطة الإختلاف بينهما أنّ السّالف ذكره كان يصبو إلى البحث عن أسباب العلة وكان الطيب يبحث عن طرق لزيادة متعته. كان هذا جليًّا من تصرّفه مع المرضى. ينظرهم على شاكلة ورقة نقدية ضاحكة من فئة الستين دينارًا. يُذكّرني هذا بطيب نفسي يتجاهل تمامًا اتّصالات مرضاه سواء كانوا بحاجة إلى مشورة طبيّة أو إذا دخلوا في هستيريا الآثار الجانبية للأدوية وينتهي بهم الأمر وجهًا لوجه أمام شبح "أريد أن أقتل نفسي" خربش في عدّة أوراق من التخطيط والتحليل وأمدّها بفظاظة. لم يكن لديه حتّى جهاز الموجات فوق الصوتية ليتكشف عنيّ.

"دوّنتُ لك عنوان تخطيط الصّدى"

ورافقتني للخارج كما الحطبة محلّفًا فرقة تكاد أن تنفجر. لم تدم زيارته
خمسة دقائق.

قالت أخصائية الأشعة:

"التّأج سليمة"

"وأصل الألم من أين؟"

"أحسب أنّها من عاقبة مُضادّات الاكتئاب ومُضادّات الدّهان"

"ألّمي لا يُطاق"

"ماذا قال لك الطّيب؟"

:انفجرتُ مُكرهاً أتكلّم دون وعي عن الذي حدث بيني وبينه

"كان معنيّاً بأكل الحلويات مع رفيقاته، لا أن يكشف عني"

اتّسعت حدقتها مثل بومة تطير في أعماق الدّجى:

"إنّه زوجي، أخبرني بكلّ شيء الآن"

وفي حركة غير عادية أُغمي عليّ لوقتٍ طويل.

وعُدتُ إلى الطّيب وما كان ينبغي لي أن أعود. مُتصرّم الوجه لاقيته.

يتنفس أحقاد المدينة. عرفت أنّ زوجته قد حكّت له كلّ شيء ونكثت

بوعدها. افترضت أنّها قضت تلك الليلة بيت أهلها. أمّا عنه فقد أمضى

الليلة في الحانة يشمل حتّى بزوغ الفجر ولا يني عن لعني.

قال يضبطُ الغضب بنفسه:

"كلّ التحاليل سليمة، لديك بعض الرمال فقط"

"ومتتكات أعصاب البروستاتا؟"
 بدا مُهتاجًا. "حجمها سليم"
 وأخفى جهله بالأمر
 "صرف لي أدوية شاسعة"
 أعطاني مُتذاكياً ابتسامة التهديد. "ستجعلك هذه الأدوية تشعر
 بتحسّن"

وعندما تناولتها، أصبحتُ أنتفض وتمددتُ على سريري شاردًا بلا حراك. كمن أُصيب بطلقة نارية في القلب. مشحونًا بالصقيع. أشهق بلا صوت. أسمع صوت المطر والريح. زخات المطر تقرع قدري. الألم يُقطّعي إلى أشلاء. يُداخلي شعور أنني أنتقل إلى العالم الآخر. يُعانقني ضباب بما يُشبه الموت. عرفتُ أنه قد انتقم مني وسعى لسحقي بسهولة عن طريق هذه العقاقير. سأفارق الحياة دون أن أنال الماجستير. دون أن ترى رواياتي النور وأصير كاتبًا. لم أُحقّق شيئًا. جاءني الموت مثل رعد، مثل عاصفة مجنونة. كنتُ في أعماق دواخلي، مُتأكدًا من ذلك، حتى أنني أسلمتُ لإعصار القدر. لكنني لم أعانق الموت. الموت أجهضني. تيقّظت بعد ساعات. عرضت الأدوية على طبيب شاب قال لي إنه لا يجوز للطبيب أن يصف ثلاث مُضادات حيوية بجُرعات قويّة في الوقت نفسه، ناهيك عن دواء يُعالج السرطان يمتدّ أخذه لأشهر. وبوجه أخصّ أثناء حالتي الصحية الهشّة.

قال يحدّثني بنظراتٍ أسغّةٍ كثيية:

"اشتكي به، هذا قتل"

كان الألم يمسح عيوني لوقتٍ طويل. "بلدنا لا ينحاز للقانون، أملي

سخيف"

"ما فعله بك جريمة يُعاقب عليها بالسّجن مدى الحياة"

"بلدنا يُمجدّ الجرائم"

ولأنني كنتُ على نجابة من أنّه بغض النظر عمّا سأفعله، فإنّ القانون

لن يُنصفني كما في الماضي، فقد لجأتُ إلى القُوّة الإلهية. وحدها مظالم الدنيا

تُرفع إلى السّماء. لا عدل على الأرض كعدل السّماء. توهّأتُ ومضيتُ

إلى المسجد وصلّيتُ وكمّ دعيتُ أن يثأر لي القدير عوضاً عني. وانهرتُ

باكيًا من كلّ السُّوء الذي يحدث لي. أنا وحدي في مُواجهة بشاعة العالم.

بدا العالم. مُتوحّشًا وقاتلًا. يقصف بشراة.

أمشي بين الأزقة رفقة "هالة" والخدر يُدهمني بالحقن ذاته. أشعر

بذهني ينفصل عن جسدي، والكون يتراقص دون أن يُحدث جلبة.

كُنْتُ أريد أن أحيطها علمًا بأنّي لستُ واعيًا بما سآتي عليه في الأيام القليلة

اللاحقة. مداركي العقلية مُشوّشة. كبس عصبي لا أطيعه يفرم دماغي.

رغبتُ أن أتكلّم بإطناب عمّا أنا عليه، وأشرح لها أنّني لا أحاول النيل

من نفسي، وإنّما ما أروم إليه هو أن أميطَ الهرج بتمامه. أن تموت أشباحي

النكراء، تلك التي تسوقني إلى الجنون، وتُفضي نحو السُّخام السرمدي.
تعتقد أنني أقوم بتزييف المرض النفسي لجذب الانتباه وأن كل ما أقوله
مُتطَرَّفٌ وخيالات.

أقول غريق الصّوت في حين أن الضباب السام يُطوّقني. "أنا لا أدعي
السقم"

تضغط على رأسي بكلتا يديها وتُجيب بالانتظام نفسه:

"حسبك اعتقاداً"

أنا لا أتطلّع لجذب انتباه أي شخص. لكنني أريد بعضاً من الرعاية
واللين الفهم.

قلتُ بعد هُنيئات كأنني أسير على طريق الأبدية:

"أه لومتّ، أما كان أجمل ما قد يحدث لي، فقد جُنّ جنون العالم وما
عدتُ أتتلف معاشته"

"أنت أصغر من أن تموت، أمامك حياة كاملة لتعيشها"

"لم يبقَ شيء في هذا العالم يخصني، كل شيء قد حَرَبَ"

"هذا صحيح، كمّ تغيّر العالم خلال هذا الوقت"

"من الأفضل تركه إذن"

"إنّه وقتٌ سيء ولا بُدَّ أن تكون لك أياماً أجمل، عليك أن تخرج
وتلتقي بالناس، بوجه الأخصّ الآن، أنت بحاجة لأن تلاقهم"

"ما عدتُ أتطرقُ إلى ربع ضربة نجاح حتى، لقد انتهيت للتو من روايتي الخامسة، وكتاب بلدنا يُعارضون على نشري"
"يا لهم من حمقى، لا أقرأ لهم أبداً، يكتبون الهراء والدعارة، لولا شبكاتهم ما وصلوا"

"لكم يحقد علينا الكثيرين لئلاً نصل"
"أحسبُ أنّ البدايات غالباً ما تكون عويصة، لاسيّما في بلدنا هذا، حيث الكره والأحقاد، إنهم يزدادون سوءاً"

"ليس ثمّة شيء لهذا الجيل باستثناء اللاشيء"

"الحداثة تقتلنا شيئاً فشيئاً"

"أين السبيل للتقدم؟"

"ليس كل الشباب مثلك"

"لكنني غير محظوظ"

"سيُحبيك الحظ يوماً، ثمّة أوقات لا يحدث فيها أي شيء، وأوقات أخرى كل الأشياء تبتسم لنا، عليك أن تظلل على ثقة من كون المستقبل كله أمامك"

"يأتي الحظ أبداً بعد أن تفقد رغبتك في كل شيء"

"لي أن أدرك أنّ حياة اليوم ليست سهلة للشباب مثلنا"

"هذا الوقت عسير فعلاً، إنّه أردأ الأوقات حتى"

"أمل أن يُكافئكَ القدر بما يليق مع تعبكَ وصبركَ وحبِّكَ لخير
الآخرين"

"أنا شخص منفتح على الجميع"

"تروقني الطيبة التي فيك"

"أنا مثل السلام أينما حللت"

"الغضب فينا كلنا"

"نمة غضب بداخلي، ولكن هذا الغضب تجاه الظلم والعنصرية
والقمع"

"نمة غضب على أي حال"

"صدّقيني، فأنا أظهر هذا الجانب فقط عندما أرى الظلم ولكنني
أظهره بسلام، العالم مليء بالغضب، القليل من السلام لأبداً أن ينتشر"

"بالتأكيد، الزهور والعطور لا يفعلون شيئاً"

"لكنهم يُساعدون على الحياة، بل ويعطون معنى للحياة"

استلقيت على الأرض، في مجود تام، مُحدق في السقف، وعبثاً سألت
تعالى إن كنت سأجد ما أنا أبحث عنه بيّد كل التوائب التي صبّها عليّ،
أجهل ما إذا كنت أرغب حقاً في ما أبحث عنه، لكن ما أعرفه هو أنني
في بُغية إلى حُضن يؤويني، فأرجو من تعالى أن يُعانقني، ويوم البعث لا
يُحاسبني، وإنما يضمّني، يتلقفني بين ذراعيه، ويُطبّط على كتفي، ويُمسّد

رأسي المتساقطة شعره، بصنيع هذا الاضطراب العقلي، ذلك أنني لست بضرورة إلى أن أحاسب بمقدار ما أنا في بُغية لأن أعانق، لأبدد السواد المعجج بدواخلي. أقيم من مكاني، وضغط محشور بين فقرات ظهري المهشمة. ألتحم بالجدار. أفرج ذراعي كالمصلوب. أغمض عيني. أسير بروية، مُقتفياً أثر المجهول، إلى أن أرتطم بالتفافز، والترابيزة، والكنابيه، وما شابه. أعاود الكرّة حتى يغمرنى دوار، حدّ الذهول، يُحطم عقلي، بحقيقة الواقع. اندسست على الأرض مطروحاً. أغفو مُنهكاً. إني أدرك جيداً معنى نقص النوم منذ أن ضربني فيما سبق. كنت أقبع لأيامٍ كثيرٍ دون أن يسبل لي جفن. عانيت من الأرق لأشهر وتلك الأشهر تتالت. لم يكن لي في أن أنام. وها أنذا الآن مُغمس في سُباتٍ عميقٍ، مُتناسياً الأرق، والعالم، والذكريات الدَميمة. قديماً، متى كان يزورني الأرق، لا يتنبّه أحد إلى إعيائي ذلك، ولا يُكثرث لأمرٍ، بل وحدهم المُقربون مني يلومون تلوناتي، وباطلاً يُوبخونني ذلك أنّي لا أرزخ لأحاديثهم وما يخصّهم، لكنني أكون، آنئذٍ، طافياً فوق سحابة تسحبني إلى أبعاد قصية. كنتُ واحداً من أولئك الذين تعرّوا من الحياة، وجردوا من العالم، منذ أن تعشّوا خيبة أمل دسمة، وتحشّوا غازات الأمل، منذ أن احتضنوا وسادة الاستسلام، وتدثّروا بملاءة البهتان. كلّها تذكّرت حوادث الماضي، ينفلق قلبي إلى نصفين. لم يحدث أن داهمتني السعادة دون أن تليها فجيعة

مؤلمة. على هذا الأساس فقدتُ فرحتي بكلّ الأشياء. لم يحدث أبداً أن رغبت بشيءٍ ونلته بدون قتالهم طويلاً وبأقذر الطرق. وغالباً ما تُحاربني شخصيات نافذة. وبشكلٍ ما، ما عدتُ أريدُ أي شيءٍ، لعلها سكينه البال التي أودّها. أذكر مرّة أنّني كنتُ مريضاً أنزف بغزارة، أفقد الوزن بعجلة، أتناول ثلاثة عشر قرصاً كل يوم، وكانوا يحاولون ردعي من الوصول إلى أحد أحلامي البسيطة، وبالفعل وصلتُ عقب مشقّة لا تُطاق، ووصلت دون أن أشعر بأي شيءٍ، منذ ذلك الحين، ما عاد هُنالك ما أريده.

اليوم، وكما كان الوضع دائماً،
ينقسم الناس إلى مجموعتين: عبيد وأحرار
نيتشه

(4)

قَصَدْتُ البنك إثر ذلك بأيّام. وقد كان شهر رمضان. دأبْتُ أن أجابه
الموت وأوَّيَّ راجعاً مُعانقاً العالم الخارجي دون أن أخذ نفساً عميقاً بعد
ذلك. من سيُطَبِّط على كتفي؟ لا أحد. أنا بكليّ ومرضي وضُغفي
وحدي في وجه العالم المقيت. منذ حادثة قتل نفسي الأولى، من تلك السنّة
المفجعة، تعطلّت أعوام حياتي. ما عُدْتُ أشعر أنني أتقدّم في العُمُر.
توقّفت في سنّ التاسعة عشرة، والعشرين. أقفُ هناك حيثُ توقّف
الوقت. يفصلني عنهم حزمة من الساعات والأعوام.

برحيل الرئيس، لم تمضِ الأمور على خيرٍ ما يكون. والمتاعب تتوالى.
تولّى البارون "سلمان" الملك حتّى يجلّ مكانه الرئيس الجديد الذي يمرّ
بظروف صحيّة طارئة. كانت الحياة، في البنك، قد أحجمت عن أن تكون
حياة. كانوا بلا كرامة، وبعيداً كل البعد، عن أنفسهم، التي عاهدوها.
لم نكن في البنك، بل في السّجن، حيثُ الظّلمة، والظلام، والقساوة. ما

عاد لنا دوافع، ما عاد لنا صفة أو وجود. نحن في حالة صراع مع خصم نتعامل معه دون أن نراه، ينصهر بالشمولية فيكون الرأسالية. كان يتعين لواحدنا الرضى بما هو موجود، لكي لا يسوء الوضع، ويخرج عن حدّه، أهنالك ما هو أسوأ من هشاشتنا وحاجتنا؟ لكل منا دوافعه الخاصة، إن لم تكن أكثر من احتياجاته.

كان البارون ينفجر كالرعد في وجوهنا دون أدنى تحفظ. يُصبح أكثره معاناة وإيلامًا. يُمارس قوّة الترهيب، لأنّ الخوف يجعل الناس خاضعين. إنّ للسلطة المطلقة مغبة التسلط. كان السيّد وكُنّا البيادق. يصرخ متى يشاء ويُجاب بالصمت. كان الصمتُ لحافهم. أكان الصمت؟ الأرجح أنّه الخنوع. الخنوع ديمومة وظيفتهم، وحياتهم وعبوديتهم وسجنهم. عادة مُثيرة أن يجدوا أنفسهم مدعاة لوابل من الإذلال أحيانًا، وحتىّ المزيد من الإذلال، لعلّه السحق في أحيان أخرى، ملطّخين بعطر المهانة، وحتىّ أئمن العطور لا يُخفي ما يُمارس ضدّهم. هذا الطاغية كان يتماذى كحوش وبشكلٍ قبيح. جرّدهم من كلّ شيء. كان من سابع المستحيلات أن يرضى عنهم مهما فعلوا. هُنالك قاعدة تُوحدهم ألا وهي ألا يتذمّروا، وألا يُعارضوا، وألا يطلبوا أدنى طلب. صبّ جام غضبه على "هالة" المسكينة التي صارت تنقبض وتبسط. مشهد إذلالها أبدًا سيُطاردي. ما كان في مستطاعي أن أردّ الضربات السمجة عنها، كانت مُجازفة خطيرة

أفقد فيها درجة الماجستير من أجل ورقة سخيقة سيحرمونني منها. خبّأت يديّ المرتعشتين، خلفي، لكي لا أهبّ في صفعه. راح يصرخُ بها ويُعزّيها من صلابتها. رأيتها تنزف شللاً حتّى قاع قلبها.

كان كلامه لزجاً، دبقاً، لزقاً. "بأي حقّ تُجيبيني؟"

كانت عيناه منتفختين ومتورمتين، تنزفان من الدمّ. بدأ يُلاعب حزام بنطاله، وحسبتُ أنّه سيخلعه ويسقطُ به على وجهها. لم تقترف "هالة" أي خطأ لجعلها تمرّ بهذا التهكّم. مثلها مثل معظمنا. يدسّ فينا سمّه. ماذا حدث له في طفولته ليُعاملنا بهذه الطريقة؟ الموظفون الطراير من أوكارهم يُحذقون في مسرح التعذيب الحسيس، يحبون إحتشامهم. يقفلون حواسهم الخمسة ويحوّلونها في اتّجاه آخر. لم يكن لهم وجهة أو رأي، ولا كلمة. علّقت لوحة على قفاهم: "للإهانة". كآبّي أبداً عرفتُ ذلك، كرامتهم مسحوقة. يُهانون وينصرفون إلى العمل ناسين كلّ شيء. وبرغم التنقلات المسموحة لهم، إلا أنّهم كانوا سُجناء بما فيه الكفاية. كان لديهم إذن، بدائل المحاباة بين درجات العبوديّة. وأن يتصرّفوا بأوجم ما في الوجوم، وربّما، أن ينحشروا تحت الطاولة، بأسفل ما يكون وهذا ما كان في مكانٍ ما يكنى البنك الرائد. وفي مستطاعي القول إنني قد أحسنتُ صنّعاً في أن أقيم في عالم مفرغ من مشاعر الرحمة والإنسانيّة. مع تعاقب القهر، ولكي أتنفّس من غضبي، كنتُ أتخيّل أنّ موظفي البنك، يكسرون جذران زنزانتهم بجماع أيديهم، ويتوسّلون من أجل الحرية.

بَسُرْتُ بمعرفة أنّ الرئيس "نجيب" كان ينتوي أن يتّخذني بالبنك
بمركز ثقيل يُكرّم دراستي. ارتأى البارون والحيزبون أنّه ليس من
المعقول أن أستحوذ على هذا المنصب بدّمائة دون أن أعيا كثيراً لسنواتٍ
طَوَالٍ. إنصَوَى البارون تحت لواء البنك - بدون حجمٍ تعليمي - وبفضل
صِلات والده الذي كان شيفور بورقيبة. الثابت أنّني - الشاب العشرينيّ
الثقّف والعلامة بأصول العمل علمياً - أُثِرُ فيه الخُصومة وحتى العياء.
استزادات تُعرّي كياستهم. بل يصل الواحد منهم إلى مَنْح نفسه في
الفراش لاستبقاء مركزه ولحيازة ترقية. إنهم لا يُمَيِّزون بين الذكر
والأنثى، وإنّما يعيشون الجمال. على هذا الأساس، فإنّ موظفي البنك
في غاية الأناقة والوسامة. إنهم يصطفونهم ليس فقط لشهائدهم، ولكن
أيضاً على وسامتهم وإبتيكات النبلاء. لا نُطلق أحلامنا لتُحلّق إلّا وتُعتال
بقلوبهم المُقرّحة. متى يمتلك الإنسان الجاه والسّلطة، تطغى الحاجة لأنّ
يملك كلّ مخلوقات الأرض وتطويعها وفقاً لشهواته.

انفجرت "ميرا" مُنهارة بعد أن أذلّها البارون الأكبر، هي الأخرى.
أقرت لي بالحقيقة. إنهم محض بياق يعملون بالمناولة منذ ثلاث سنوات.
ينتمون إلى وكالة مُؤقتة تُمارس الرق الحديث وتُسمّى أداكو. يحكمها
أرباب البنك وتقوم بتجنيد الشباب الطموحين برواتب مُخفضة. من
ستائة دينار، وقد تصل إلى ثمانمائة دينار إذا كنت حاصلاً على الماجستير

وعملتَ لمدة ثلاث سنوات فيما فوق. تنتدبُ الوكالة طلابًا من جامعات النخبة ومن عائلات فقيرة ومُتوسّطة الدخل لِاسْتِرْثاقهم ورميهم في عامهم الرابع. شعارها التخليّ عن الأحلام والقيم. أهدافها رفع أرباح المستثمرين باستغلال مُوظّفيها. كل تلك الشياكة والأصالة ليست إلّا زيفًا. إنهم ليسوا بشرًا، وإنّما حيوانات مهضومة الحقوق. لا يستمعون إلى همومهم اليوميّة. دخلهم بالكاد يُغطّي نفقاتهم. لا يُغلق البنك أبوابه أبدًا من السّاعة الثامنة صباحًا حتّى السّاعة الرابعة والنّصف مساءً. يُغادرون البنك السّاعة الخامسة والنّصف. إنهم لا يأخذون فاصلًا كما كِبار الموظّفين الذين يتمون إلى البنك. إنّها تنوب البعض أماكنهم في العمل ليتناولوا الغداء. يعملون ساعات زائدة غير مدفوعة الأجر خشية الطرد. إنّ حذاء الرئيس يُقدّر بنصف راتبها. وجودنا يخفّت تدريجيًّا إلى أن أصبحنا لا نرى.

"عبيد القرون الوسطى يقبضون أكثر منّا"

"لماذا قبلتِ بما أنتِ عليه؟"

"ذلك أنّي بحاجة إلى العمل"

"لكِ أن تعشري على وظيفة أفضل منها"

"أبي لا يعمل وأمّي ربّة بيت، وحده دخلي الذي يكفلنا"

"أتمنّى أن تجدي وظيفة أخرى ببنك محترم"

"آملي بالتغيير منعدم"

"لا تقولي هذا"
 "أشعرُ أنني دُمِيَّةٌ تُحَرِّكُ من أعلى، لا أملك قدرِي"
 "كُلُّنا دُمِي"
 "لكنَّ خُيوطَكَ أطول من خُيوطِي"
 "لا أعرف ما يتعيَّن عليّ فعله لأجعل الحياة في هذا البنك مُحتملة"
 "اكتب ما قلته لك في مذكرة الماچستير"
 "عِدِينِي أَنِّكَ ستبَحِثِينِ عن وظيفة أُخرى؟"
 "والبرستيج لا تستطيع مُفارقة؟"
 "دع البرستيج يذهب إلى الجحيم"
 "النَّاسُ يحترمونكَ على أساسه"

عهدت لي بترتيب الملقّات في صناديق حسب الأرقام. وأدبرت إلى مكتب "إدريس". جاء البارون "سلمان" بعد هُنيئاتٍ. ترامقنا في غموض أكثر ممّا ينبغي. وكان عليّ أن أتكهّن مرادفات نظراته المحرّورة. يجعلني تائقاً لسفك دمه. أبقىْتُ عينيّ مفتوحتين. وما كنتُ لأدري أنّه كان ليُعاجلني بدفعه ولسعه الممسوس. مُفرط في جنونه يقرعني بابتسامة ماكرة تحمل الضغينة. يراني لقمة سائغة. إلى من تُرفع الشكاية إذا كان الشخص نفسه يُقدّم به وإليه الشكاية؟ تلك المبالاة لسداد الإساءة بمثلتها قد ماتت بداخلي. فلكثرة ما عانيت، ولفرط ما تحمّلت، قدّرتُ،

خطوة بخطوة، من فقدان لنصف وجودي، ورأيتني أدخل إلى عالم ليس فيه ظلم البشر. من أوحى إليه بممارسة هذا القمع؟ يُفتش عن إحداث المتاعب معي، حتى يتخلص مني، ولا أنال درجة الماجستير، فينفردهو بالسلطة. تحوّلت متاوتاً إلى الجناح المصفر في أشتّم منه رائحة القيء والسكر. كم لازمني شعور بأنّ الثقب الأسود سوف يسحبني. أغدو في مكانٍ آخر.

الراسميّة أخفقت في تثبيت الإنسانيّة. حققت التطور التكنولوجي على حساب الجانب الاجتماعي. أطراف تعيش في ترف اجتماعي بخنق أطراف أخرى من أجل الربح. هذا ما يُسمونه صُعود التّقسيم الطبقي. هنالك حفرة ضخمة أنشأتها اللوبيات لكي يسقط الفقراء فيها ويستعبدوهم. نشترك كلنا في العالم نفسه، لكنّ هنالك طبقة من الغيوم الشفافة تفصلنا عن بعضنا البعض. الفقراء يلتقون بالفقراء والأغنياء ببعضهم. فالأغنياء يجلبون الفقراء إلى زوبعة الإنتاج بدون استهلاك. شيئاً فشيئاً وجد العمال أنفسهم قد بيعوا بالكامل. يتقاضون رواتبهم حتى يتمكنوا من العودة إلى العمل من الغد دون إحراز تقدّم في حياتهم. الراتب يُمغض كاللبان ويُزقّم منه قضمات صغيرة جداً طيلة شهر.

قلت لـ "إدريس" الذي كان يقوم بتحويلاته الماليّة خاصته:

كنتُ أظنه سيطيّب خاطري. "ألي بالمجعيء بُعية أن تُعطيني معلومات

لأجل بحثي؟"

"أنا من أناديك متى أريد وليس برغبتك أنت"

انفجر الجميع بالضحك، بما في ذلك العملاء. إنَّ هذا الموظف اللقطة غدا يُثير الرثاء. يا للتحس. شيء ما في نفسي يجعل الأشرار من حولي، شيء ما خسيس يجعل حظي مع النَّاس مُوحش ومليء بالغرابة. كنتُ لا أحسُّ بشيء ولا أشعرُ بوجودي في أي شبر من البنك. كمَّ لازمني سُعور بأنَّ الثقب الأسود سوف يسحبني. كان صمت صرخاتي يقعر الحدَّ الفاصل بيني وبين العوالم الرمادية الأخرى. المواصلة تعني الأندثار. لقد استغرقتني شيء من الوقت، لأعرف أنَّه لا شيء يستحقُّ مُحاولتي، لكنِّي، برغم كل شيء، كنت في حاجة إلى المواصلة، وإلا، فلن أنال تلك الدرجة العلميَّة، التي سأدرك سخافتها لاحقاً.

تَمَّنت في الأيام اللاحقة، بالمضي إلى مسجد في إحدى المدن القصيَّة خشية أن يُذيع الإمام-الذي أخلاقه كالخنزير- ما كُنْتُ سأقوله له، ذلك لأنَّ الأئمة بمدبنتي يكثرون من الكلام ولا يجسسون سرّاً. سأرتمي على الأرض ملفوفاً في جُبتي، أتمرغ على السجّاد، أُريد أن أنسى حُبّاً لثيماً قديماً، وقد سئمتُ من كلِّ المحن التي تُطاردي. كل الأشرار لاقيتهم ووحدهم الأخيار لا أصادفهم. هنالك من دسَّ لعنات بحياتي فأزهاها عني بأي ثمن، وإلا فإنِّي سأقتل نفسي لأكسر هذه التعاويذ العفريتيَّة. وبقدر ما أعلمه، أنَّ انتحار شخصاً لم يعد واعياً لا يُعتبر بمثابة قتل للنفس، أمَّا عن ذهابي إلى

أحد العرّافين والدجالين لن يزيد سواي إلا سوءاً. كل ما كنت أفكر فيه، هوبثّ نبأ موتي، بالصحف والنشرات الإخبارية، أثناء إحدى جلسات سحب رداءة حظّي بسقيفة العرّافين. وهل للإمام سبيل ليخلصني من كل الألم والجُنون اللذين أعيش فيهما؟ ورّبها، إذا رأى فوضاي وضعفي، فسيحتاج إلى سيارّة إسعاف، لتقلّني قسراً، بعد حُقنة معضليّة، إلى إحدى المصحّات النّفسيّة الفظيعة. لكنني انسحبتُ من المسجد قبل لحظات من وقوع هاته الكارثة.

في ذلك الصّباح الدبق، وبعد أن كان مجيء الرئيس الجديد مُتأخراً أردفت حائراً: "يقول برنارد شو أنّ المدير رجل يأتي مُتأخراً عندما تكون باكراً ويأتي باكراً عندما تكون مُتأخراً" فردّت "مرام" مثيلة بـ "بلودي ماري" المُتقرّزة "من هذا؟ أهو بائع مُعجّجات؟" وندّت عنها ضحكة بغیضة وشريرة وجهنميّة. أجبّت ببساطة "كان كاتباً" ما عدت أخذ كلامها المسعور مأخذ الجدّ كما كلّ مرّة، وإنّما أخذه مأخذ الحماقة. غلبني النّعاس شبحاً مُتكاسلاً وكان خيالي ينسج لي تصوّرات مجهولة التحقيق عن كوني سأصبح مديراً طال الزمان أن قُصّر وأنقض قواعد الرقّ والقرف. أنتزع الملاقظ عن الكرافات. هزرت رأسي فوجدتُ أحد أقاربي في الصّفّ الأمامي يحمل ملفوفاً من التّفود. يرمقني وقد علّت على غره ابتسامة. ضجيج الصرّافة يحفر في أعصابي.

قال ليأزحني كما كلّ مرّة:

"لماذا البنك في حالة من الفوضى"

وكان ردّ الحيزبون "مرام" ساحقًا وسلطويًا، لعلّه سخيًّا:
تواصلُ مُنْوسَة أَكْلا لِسَمْعَتِي. "بوجوده في الجناح المصرفي حتّى
حساباتنا نعمَ فيها الفوضى"

يرتاع قريبي مُهمهمًا. يجدجني بنظرة مُريبة وبالتّالي لاذ بالصّمت.
أحسستُ أنّ ملاحي طفقت تنغصّن. أحسستُ بنزعة لأنّ أختفي. رغبة
لانسحابي وانسحاقِي. لا حسّ ولا حركة. تَلْهَفُ طاغ إلى ما لا نهاية
لأنّ أفضز مُحلّقًا. ولفحني ألم يمتد يمتدّ. ألم أقسى من كلّ الافتراءات
التي وُجّهت لي في المواراة. ألم لا ختام لمرارته. ألم ممطوط لكلّ مصائري
وتوجّهاتي. ثمة شيء حار ينسكب على رأسي. يربو تكومًا. ألصق
بالبرد. ألصق به دون دراية. ومن ثمّ لم أجد من نفسي القوّة لأدافع عن
نفسي. تلك اللامبالاة ما أجملها. واللامبالاة تعني موت الخوف والتفكير
والشّاتة والسّعي لإرضاء من لا يُرضيهم شيء. سادعُ الكلّ يقول ما
يقولونه وأجعلهم يؤثّمون على ما يظنّونه بي. فلا شيء عاد يعينني. لكنني
تساءلت، لماذا نُعيبُ علاقتنا بحرصنا على تشويهها حتّى صدأها؟ لماذا لا
يُقَبِّضُ لنا أن نكرّس تعاملنا بمودّة وتقدير؟ هذا يُنافي طِباع طفلة العفريت
الفضيعة. وقُصور رهيب في التفكير الذي يلسعني.
لا يُحِبُّ الرئيس الجديد الاختلاط بالموظّفين. مكتبه لا يُفارقه. بالكاد

رأيتُه مُحترِّقاً في عتمته. أحسُّ أنه يشعر بالخوف أثناء الاجتماعات. يتعامل بقدرٍ من التحاشي. عندما دلفت إلى وكره وجدته يفور من هاتف إلى آخر. مكث متغافلاً عن إياي. يتتابه شيء مثل الرعشة والخفقان. يفرُّ الشرِّ من وجهه الأربعينيِّ الفتيِّ. عبثُ نشقة من الهواء الفواح. ما قدرتُ أن أتكشِّف عن ماركة بارفانه. مدافع طيف الفُصام تنطلق في من تجاويف. أكبح أوتاري ونفسي وتلاحقه. لماذا أنا في صراع أبديِّ معه؟ كنتُ عاجزاً عن الإدراك. وكان رأسي يرسم بالونات وفُقاعات ملوَّنة تصلُّ إلى السَّقْف وتنبثق. تدخل الأفزام مرصوفة وتتسامر ببلاهة وحنق. ترمي بنفسها على الرئيس، تعضُّ عنقه وربطته وحزامه ومربَّعه الرقيق. أحسُّ بقرف من مُتابعة جُنونهم.

قال بلُطف شديد مع كثير من التكلِّف:

"عن أي شيء جئتَ تسأل؟"

يتمحور بحثي حول المسؤولية الاجتماعية للشركات. تضمُّ فيه الشركات الاهتمامات الاجتماعية والبيئية والاقتصادية في أنشطتها في إطار مفهوم التنمية المستدامة وخلق عالم أفضل. يُعدُّ البنك العمود الفقري لسياسات المناخ ذلك بفضل فاعليَّة خيارات التمويل وثقلها.

"بماذا أستطيع أن أخدمك؟"

"بمدي بكلِّ المعلومات في هذا الصدد"

"لماذا لم تقم ببحثك قبل مجيئي؟"

أحسُّ بغصّة محتدمة، فقلت:

"لأنني لم أجد من يُزودني بها"

أجاب برفق، دعوة لتلطيف الجو:

"ماذا تُريد أن تعرف بوجه الأخصّ؟"

يختصّ القطاع المصرفي في أعلى نقطة بطبيعة علاقته المهترّة مع عملائه. زادت الأزمة المالية لعام ألفين وثمانية من أزمة الثقة. بإمكاننا كسر هذا القلق إلى حدّ كبير من خلال استجابتنا بإستراتيجية الشفافية والتواصل، لا سيّما عن طريق المسؤولة الاجتماعية للشركات. صقل ظروف العمل عنصراً أساسياً يتّرف فيها الموظف بمنزلة سليمة من الاستقلالية. توطيد القرب بالموظفين واجب. إئتلاف الموظّفين له سَطوة فورية على إيفاء الشركة، كتحسين الإنتاجية. سيكونون أيضاً أكثر ميلاً إلى ابتكار أفكار جديدة. إنّ الموظّفين المشاركين في حياة الشركة هم ناقلات حيوية للتواصل وارتقاء صورة علامتها التجارية. زيادة إلى إنّهفات وتيرة التغيب والإجازات المرضية. جوهر ازدهار المشاريع الكبرى هو حفظ الموظّف. وحده المال بدون تنمية مستدامة يبعث الخراب وتدمير الإنسان.

"إنني أريد أن أتبنّى هذا البرنامج بشفافية"

إنّ المرمى المبدئي من أطروحتي هو استبانة العالم الواقعي للمسؤولية الاجتماعية للشركات وليس ذلك الذي تسعى بعض البنوك إلى إقناعنا به

من خلال الغسل الأخضر والغسيل الاجتماعي، وإيلاء انعكاس للتنمية المستدامة في القطاع المصرفي. كمّ خسرنا حتى أدركنا أنّ الرأسمالية لا تحرص على مصلحة المجتمع وتحقيق السّلام. ناهيك عن تدمير البيئة، وظلم أقلّية اجتماعية خاصّة، وقصور حسّ السكينة في مكان العمل، وغسيل الأموال، وإقصاء الفقراء من المعاونات البنكيّة. اندلعت رغبة منّي في إنشاء برنامج خاصّ يُشارك في توثيق الفئات الفاعلة في المجتمع الاقتصادي من أجل تحقيق سلام دائم للجيل الحالي واللاحق.

مُتَشَنِّجًا ينظرني بهلع:

"سأقوم بالاتّصال بمدير الموارد البشريّة لمعرفة ما إذا كان يُمكنه مُساعدتك"

خرجتُ بخطوات ملكتُ أن تكون رصينة.

في الأيام القليلة اللاحقة جاءني عرضًا من شخصيّة نافذة لأشتغل بإحدى شركاته الكبرى بمرکز مهمّ شريطة أن أدفع المال وأكون عبده المطيع. وهذا شرفٌ لي لا يناله إلاّ أبناء النُبلاء، وأنا لستُ واحدًا منهم، لكنّي أتميّز بهم وأتفوّق عليهم. قالها لي دون مُواراة. هكذا، دُفّعة واحدة. ولأنّه شخصيّة نافذة فإنّه يتكلّم بلا مُواربة. لاشيء يُقدّم بالمجان. إنّه يصطنفي موظفيه بجماهم وكماهم، بمكانتهم واتيكيّتهم. لا يُوظّف أحدًا هذرًا، بل بمقتضيات وبنود طويلة وعريضة، كلّ هذه الأحكام والمعايير

يجدها في شخصي أنا. إنه سيّد المقام ونحن مجرد عبيد. العالم ملكهم ونحن يبادق نُسلِيهم كيلا يشعروا بالوحشة. حُوت يأكل حُوت وقليل الجهد يموت⁽¹⁾. كان الضباب الأجاج والمُقرف يعبث بأعصابي. أحسُّ أنّ عقلي سينفصل بتمامه عن جسدي فيغمري الفُصام بجُنونه وسُخطه. تُلاحقني بُغية لأنّ أزدرد فُرص مضادّ للذهان. يُدركني رَجاء لِحبة زولان. يخترقني نَوَق لأنّ تُوضع الأقطاب على معابدي وأصعق بالكهرباء. أحسُّ بكلّ هذا حتّى أعود إلى نفسي ولأعرف بأيّ شيء أردّ عليه. لكنّ كلّ هذا لا يُوجد وبالتالي نزلت من سيّارته دون أوهى تفكير. لا حسّ ولا حركة. وأهذي أنّ ليس لي أحد. سلاسل ضخمة تشدّ رأسي وقنابل موقوتة تنفجر منه. دقّ الطُبول. وكلّ ما سمعته أنّ الأصوات تهزّأ من نفسي. متى ستعرف هاته الأنظمة المفسودة أنّ لا شيء من أحلامي عاد يهمني سوى أنّ أحصل على راتب لائق أعيش به، أدخّر منه ما يكفي في حال اخترقني الفُصام بنصيب من الحيازة، ولتحرير رواياتي ونشرها. أريدُ أن أصير كاتبًا عظيمًا. لقد دمّرت لي أحلامي. كلّ ما خبرتني به "هالة" كان صحيحًا. إنهم يتاجرون بأحلام الشّباب بأقذر الطرق. لا يعرفون الإنسانيّة، لم يسمعوها بالعاطفة والحبّ. المال فقاً بصيرتهم وشفط ضمائرهم كقشّ الشرب. لا يميّزون بين الذكر والأنثى. وحده الجمال يُريدون مصّه

(1) مثل شعبي

حتّى نهايته. كلّ شيء بات يدور حول المال والأعمال والجنس بوضعيّاته. حسبّت أنّ الأحلام كانت لتتحقّق بعصا سحرية كما في القصص، كبرتُ لأعرف أنّها كانت لتتحقّق عن طريق الفراش وذبذباته. ياله من زمن مفسود.

كان القمر الذي يملأ السّماء يفرّش أضواءه على الطرقات. يدها النحيلّة والشاحبة محسّوة في فُتحات معطفها، كالعادة. وكلّما ضبطتُ توقيتتي أجدها بعالمي. بقامتها أمامي. مُنصهرة بفراقي. ومُلتحمة بأبديتي. كثيرٌ بها أنا بشارة الزمن. فاجعيّ هذا الولّه الذي أنا فيه. تعلّقتُ بها بكل ما تحمله الأرض من خيبات. من ذا الذي قرع أجراس أرضي. خرّ قلبي من قلبي. في دُنياها هوى. في الغرام مُتيمٌ. دُنياي فيها هوثٌ. مُستوطنة الفؤاد. آمالي كُبرى. كعظيم تسرّبي إليها. يذوي قلبي فأنتهي أنّي. سأحصد نفسي وأموتُ ولعاً فيها. وليشهد قلبي والعالم أنّها تستحقّ لطف الكون برُمّته، الحُب الذي أوهمها ذوات المضخّات المُهترئة إيلائها إيّاه. يا أبديتي المتأوّهة لا تقولي للمقادير كلّاً، قُولي: "آه، أقبلني لطيف العشق المتأوّه" إنّ في ذوباني العذب بها تلقيحاً لبراءتي وولادة لقلبي وانعتاقاً لجسدي. الحُب صُدفة العشق فيتوه الحُب عن العشق. كانت صُدفتي الحُلوة. الغوص في الموت ليس كالغوص في الحُب. الأوّل وفاة والثاني خلود ما بعد وفاة. لا يستقرّ الكون بتقلّباته وتزعزعه إلاّ بحضور الشّخص المنشود والمراد المكوث وإيّاه رُغم أنف العالم. الحُب يُدكّرني

بالأطفال، شفاف ونقي. لهذا حُب العقلاء لا يكتمل. يجب أن تُحِب بقلب طفل وتُحافظ على ذلك الحُب بعقل الكبار. أسرّها سرّاً غائراً: "إني على أوتار الخوف، على الرغم من ولعي اليقيني بك. على الرغم من إيماني المؤكّد بك" مررتُ بعدم الأمان والغدر وجُل الموصوفات البشعة. معها أُحاول أن أعود إلى هدوئي الثابت. معها أحياء على أنغام الدوّام. أصوّرُها بنظراتٍ. أُرَدّدُ حُبّها بزخات المطر. أحتضنها بين أعماقي. أُقبّلُها في خيالاتي. أميظُ عنها مواجع أعرف جيّداً أنّها خبّرتها واجمة. أحببتُها كالمنفسيّ الذي طوعاً اصطفتى أن يجعل حياته بانتظار حرّية، بحيث لا تجيء إلا بمجيء الشخص المنشود، وكانت شخصي المنشود. لن أقول أنّها زماني لأنّها بالكاد كل أوقاتي. أحببتُها على ما هو عليه فحسب، بالمساوي قبل المحاسن. أحببتُ ظلامها قبل وميضها. وأختلف أنا عن أولئك الذين مرّت بهم وكذبوا بشأن حُبهم لها. أختلف كوني الرفيق الفعلي بينهم. الاختلاف هو استثناء المسار. لا أدري أي هوس يحكمني ويعبث بعاطفتي. أجهل ما بي.

أيقظتني "هالة" من غضوتي قائلة:

"ما بك شارد؟"

"لا شيء"

"أأنت واقع في الحُب؟"

"كلا، هذا سُخف"

"ألم تقع في الحب الماضي؟"

"لا أريد أن أتحدّث عن الماضي"

"أُتخافه؟"

"ما حدث في الماضي لن أحمله معي في حاضري"

أقرّ إقراراً سحيقاً أنّي بتُّ أنقصي عن حضورها منذُ أن وعيتُ بحقيقة
تعلّقي بها الذي لا مهرب منه. كيف لي أن أتمّ عيشي دونها؟ صارت
موسيقاي الباهرة على قيد أغنيتها وسكران قلبي ونشوان عقلي، بحقّ
الندم أي شيء فعلته بي؟ أنا واحد أولئك الثابتين والشرفاء النادرين. الذين
إذا أحبّوا أَسْتَقَامُوا وإذا وعدوا صَادَقُوا. تصفعني بعثرة أحاسيسها.
يغويني إختلالها حال مرأي. فيها إشكال الحياة. أنا رقيق دونها ومُهَيِّين
في حضرتها. سأحارب من أجلها إلى الرمق الأخير. سوف أَسْتَنْظَرُهَا إلى
آخر نفسٍ من حياتي. سوف أَسْتَنْظَرُهَا إلى أن يهيلوا التراب على ضريحي.
ما بيننا مسألة لا بدّ لها أن تحلّ. أشاهدها تلوح في الخراب، أهو سراهما؟
وحتماً ستختفي مثلما توارى الحب عن طريقي قديماً. شظايا مُتَنَاطِرة مِنِّي
ترتقب حضورها الدائم. تأتيني نزوة. تدنو بخطى ثابتة ورصينة. يتحجّر
الوقت. تهبّ رياح السكينة لتنأى بعيداً بهاته السُحْب. أرتعد. وأتأملها
عن كئيب كما يفعل العاقل والأهبل. أحسّ أنّ أدنى إهتمام يُقدّم لي يتحوّل
فجأة إلى حُبّ حتّى وإن كان من قرد.

أيقظتني من غفوتي مرّة أخرى:

"ما بكّ شارداً ثانية؟"

انتقل بي التفكير إلى البنك، فقلت:

"إنّها الأفعى "مرام"

"تجاهلها"

"لا أستطيع، إنّها تُثير حنقي"

"إنّها لا شيء صدّقني"

"بلى، إنّها الحقد برمّته"

"دعها تحترق في حقدّها إذن"

"لا تُنبي عن انتساب تُهمة السارق بي"

(1) "لا تهتمّ بما يُقال، باطِّلاً يُشوّه الأشرار الشرفاء"

"القدّ قدّ القولة والفعائل فعائل غولة"(2)

"ما غاضتنيش من الكامل لمكّمل حتّى تغيضني من الهامل لمقّمل"

"أكنّ لها مشاعر الضغينة"

"دعنا منها، ما رأيك بالرئيس الجديد؟"

"إنّه خائف من الجميع"

"تنبّهتُ إلى ذلك"

(1) مثل شعبي تونسي

(2) مثل شعبي تونسي

"لا أعرفُ ما به"

"أتمنى ألا يتبنّى سياسة الإذلال لفرض سلطته، هو الآخر"

"للشعر وجوه مُتعدّدة"

"ذلك الذي تُسمّيه بالبارون ينفرد بالرئيس دائماً"

"أحقاً؟"

"أحسبُ أنّه يدسُّ برأسه أشياءً سيّئةً عنّا"

"أعتقدين؟"

"إيماني راسخ فيما أحدثُ"

"الحياة هكذا، تدور حول الظلم، لا غير ذلك لمواجهتها"

"عش حياتك مُتمتّعاً حتّى نهايتها"

"دوري ككاتب يمنعني"

"دعك من هذه القصة، قصة الكاتب. كن على دراية بنفسك وعش شبابك دون تسميات، لا تفرض على نفسك أوزاناً لا تستطيع تحمّلها"

"أشكرك لتذكيري. هو هذا دور الكاتب، ضائع ويؤجّه الناس"

"لكمّ تُعجبني متى تقرأ ما بين السطور"

"نعود هذه الميزة إلى قراءاتي الكثيرة، إنّي أحدثُ وأحسّ بكلّ شيء"

"الكميّات لا تمّ، الجودة تجيئ أولاً، توقف عن تقييم نفسك، أوّكّد لك أنّ لديك بالفعل قيمة كبيرة ولكنك مُطوّر خصيصاً"

"أحياناً لكم يحتاج أحدنا إلى شخص ما ليذكره بأشياء لم يرها في شخصه"

"دع أفكارك تتدفق لتسحب منك القيود التعليميّة والأبوية والبطيريك، اسمح لنفسك أن تكون أنت، أقصدُ أنتَ بكلّك عاري أمام صورتك دون الحاجة إلى انعكاس المرأة التي تُرسل لك صورة ليست لك" في ذلك الصّباح الدبق الحزين وصلتُ إلى البنك باكراً وملسوعاً. الثابت أتى لم أتنبّه إلى كمّ السّاعة، فلم أغلق عينيّ إلا ساعة واحدة وعند طلوع الفجر الأجاج. أشعرُ بالتعب ولؤمه الساعِب يمتدّ إلى أعصابي وسؤمها. تعب رفيع يجعلني أنام بقرف الرطوبة في أي مكان أجلس فيه. تعب يفور إلى المدينة ويغرقها في الضباب وشتاتها. اضطررتُ إلى تناول الفيتامينات. صار قلبي يألف التّعب. كُنْتُ بحاجة لأنْ أخذ إجازة لكنّهم كانوا سيُجيبوني بالرفض وصواعقه. كنتُ لا أُطلق يدي إلا وأخطأ كبس زرّ الجرس.

وفي ذروة الإنشدها شرّع البارون لي باب البنك وكانت على وجهه الثخين الحقير دهاليز الضيق. كان يصدُّ ولوجي إلى البنك، حسبتُ أنّه سيقدّم لي إتاوةً ويصرفني، وعندما نظرتُ إليه مُطوّلاً تنحّي جانباً. لو كان في مُستطاعه لكمي لفعل. ودخلتُ لاعناً أنقم على نفسي. نتانة القرف تبعق من البنك وحتّى من البار فان خاصّته. وجدتُ عميلاً في مكتبه بضوء

هزيل كشف نصف وجهه. عرفت ما كان هذا البارون يفعله فتجاهلته تجاهلاً كاملاً. أرحف إلى الجناح المصري وغرقتُ مُحنّناً في المقعد الخلفي. كان يُدخّلني يقين أنني سأنام دون مُقاومة. إنني في ظل التيار كما لم أكن من قبل. باستسلامي وهلعي وموتي أنقاد للنوم وخمره ودغدغته.

كُنْتُ على أرضية البورصة الموحشة مُنغرساً إلى مُستوى عنقي، وبلا روح، وعلى ما سمعت كان أصحاب المصلحة يتحدّثون عن مُقايضتي بحرص متعنّت إلى المستثمرين: "هذا موظّف لقطه، من يشتري؟ موظّف الموسم وبارون الغد" وكل ما حوّل عواء الذئاب يُوقدُ تَبْرُمي، ثمّ اشمزازي. وكانت أسهمي ترتفع ملهوفة مثل سفينة فضاء تطفو في الهواء. مفرقات نارية تصبّ الأوراق النقدية من فوق. "هذا موظّف لقطه، من يزيد؟" ويغلّفني الصّقيع المؤذي فتبني جُدراني. يرتخي ضباب الصّقيع في أعماقي، وأصرخ ليكفّ الطغيان عن العبودية، ويُجمّ الكون عن جُنونه وفوضاه. إنني لستُ شيئاً يُمكن شراؤه أو بيعه. أنا إنسان. ويتعالى النُباح المحموم لواحد من أصحاب المصلحة "هذا موظّف لقطه، من يزيد؟" عشرات المستثمرين يهتفون بحناجرهم المحرورة ولكلّ منهم سعر مرتفع يزيد بمزايدة خصمه. انطلق الزّعيق من نفسي مفاده أنني لستُ شيئاً ليُباع ويُشترى. أصواتهم تدوي مسعورة شرّيرة مثل انفجار الألغام "لكلّ شيء سعر، حتّى الموظّف اللقطه" تيقّظت على الصّوت القاصف للرئيس:

يعصفُ مُهتاجًا. " أجنّتَ لتنام لديّ؟"
 انتفضت كالذبيح في مكاني وكان الموظفون يُشاهدون مشهد الإذلال هذا.
 للرئيس عينان تتسعان ينبثق منهما السيادة والإذلال. " البنك ليس
 مكانًا لتنام فيه"

وقعت عينيّ على البارون الأكبر وكان يُطلق ابتسامة ملؤها الشجاعة.
 كان خلف هذا التحريض والمعمة التي حدثت. وتغرس نظاراته في
 صدري مثل قدري الممسوس. قام بما هو أخطر ما في الوجود.
 إنقاصَ عليّ الرئيس بغلوا زعيقه أبدًا لم أخبرَ تواصله. ما كنتُ لأعرف
 ما يتوجب عليّ فعله ساعتها. لم يكن له من غرض باستثناء أن يزيد من
 إذليّ. جعلني أتقرّم حتّى يفرض هيمنته على الموظّفين. لم أكن نائمًا بقدر
 ما كنتُ سقيمًا وبلا حياة. أفضيت له بما أشعر به، أنّني فاقدٌ للحيوية. لم
 يأبه لكلامي. لم أجد من الوقت ما يكفي لأختفي على مرأى من المهانة.
 عجزت أيّ موقف أُتخذ.

مُحلّفًا فرقة الآواني الفارغة. " لا أريد رؤيتك أمامي بعد الآن"
 كان كل ما في البنك من أوراق وملفات وكراسي وطراير يعرق
 يرتعد. إنّي اليوم، كما كلّ يوم، أرهن حياتي ثمنًا لحيازة السلطة. أعتقد
 أنّه إذا تُركنا لوحدنا لنسبني إلى أسوأ سمات الخنزير والوحش، ولسوف
 يُطلق عليّ أكثر حيواناته الداخلية بشاعة.

وصرفني إلى المكتب الخلفي أين توجد "ميرا" التي كانت مُضرّجة بالعتمة. بدأت أحلم بمدينة أفلاطون الفاضلة. وكل ما حولي ينضح دمًا أسودًا. جاءت "مرام" السوداء مشحونة بالشرّ. نظراتها المعقوفة والمُهتاجة كأنياب بنت آوى ذلك أنّ الرئيس أهانني أمامهم وذلك بكرامتي الأرض. أي نفوس شيطانية شرّيرة تستولي عليها؟ شعرتُ بدهشة الموت ثانية على ما حدث لي كحفارة تُنقب برأسي. موت مُتمهّل لا يُضارعه أي موت آخر. موت في تماثله بفقدان المُحتضر أنفاسه فلا يموت. الحقد المُسلّط من عينها يُطلق رصاصات الموت. تغرس الدبابيس في عقلي. العويل والهلع اللئيم. المهستير يا تفرع أدنيّ. القهقهات المسمومة التي تنفجر من حلقها تتبدّل إلى ما يُماثل السطو، إلى ما يُماثل القتل والذبح. في البنك يستحيل العالم إلى غابة يُعشّش فيها وحوش مُفترسة في بذلات فاخرة. وتنزلُ شرسة من مجال بصري الضبابي كأبخرة دُخانية مُؤذية. لولا التراب في حُنجرتي لانفجرت.

يغمرنى الضباب بمقته ولسعه وبالتالي يُفتّني. يُحاول لأنّ يُسقطني على الأرض الكئيب. ما الذي يمنعي من الانفجار في وجه كلّ واحد منهم بأي ثمن وبوحشيّة؟ مُبرّر أو لآخر؟ توافه كحُصولي على درجة الماجستير، كانتظار شيء لا أعرف مأتاه، كعدم استكمال منجزات محتضرة لن تعني شيئاً بعد خروجي من العالم المُجهض. ناهيك عن الأشياء التي

تثير أعصابي، وتسيل بواعثي، وثم تعطلُّ محرّكاتي. افترضتُ من جملة ما افترضت، أنّ حالتني الحالّية ما هي إلاّ نتاج صمّتي وتصدّع كرامة البنك الحزين الذي أتربّص فيه. أنا لم أكنُ أسعى لأكون بينهم مُطلقاً. تربو كآبتي. تنفّستُ بعمق وكلّ الذي كنتُ أصبو إليه برق بذهني. أجدني اليوم مُجرّداً منطقيّاً من كلّ شيء. غمغمت في سرّي أنّي كُنتُ مُمتلئاً بكلّ شيء والآن مُجوّف حدّ السّامة والألم.

كانت "ميرا" على وشك أن تسترط أقراص لتخفيف الألم، لكنّها توقفت، استدّكرت أنّنا في شهر رمضان، تلك الأقراص هي ردّ فعلي على التوبّيح، والقمع، والألم، ولعلّه، الانتحار بنفسه. وها أنذا مُتعب، مُضطرب، مُرتعش، أديم النّظر إلى الأوراق والملفات بنظرة غريبة وغامضة، نظرة مُتأّتية من مرض عضّال لا يُمكن علاجه أبداً. يحدوني شعور بأنني في أنمّ هزيمتي واستسلامي. ما زلت لا أعرف كيف اخترق نظام البنك دوافعي بسهم أسود مسموم، وكيف قادّني نفسي بأن يعث أربابه بنفسه العليله، لا أعرف متى وكيف أخذت كل هذه الأشياء المظلمة الرهيبة بجرعات. لا زلت لا أعلم كيف ظللت على قيد الأمل ولم تُجهز عليّ هذه الأنظمة الرّاسماليّة. لقد راودتني خاطرة قتل نفسي في البنك، في الماضي، لم يتكلّل انتحاري بالنّجاح، فمن الثّابت لشخص مثلي، ليس له أن يُفكر في الحياة، بل في الموت، وهذا الموت يُلاحقني في المنزل،

وعلى الطرقات، وفي مقاعد الدراسة، وأخيراً في البنك، ويظلُّ يُلاحقني. الذين من جيلي ومن همَّ أكبر منِّي سنّاً لم ينووا قتل أنفسهم بالرَّغبة نفسها التي أصبحت مُتجدِّرة في ذهني بعد دخولي إلى البنك. في حين كان زُملائي في الفصل يعدّون خلطة لبناء مُستقبلهم، كنت أعدّ خلطة غير مؤمّلة لقتل نفسي. فيما مضى، كان لي، صديقة انتحاريّة مُتهوِّرة، كانت كلّ ما يُصادفها حجراً في طريق السَّير إلى حُطّتها، تتهم والديها بحِنَاية أنّها لم يأخذها بمشورتها متى أنجباها، وولدت ظلماً وضيماً، ولم يُحسنا تنشئتها، على الإطلاق، وتتهدّدهم، بارتكاب جريمة قتل، من خلال، شُرْب حَبّة "دولبران". ذهب في ظنِّي اعتقاداً، أنّي أصبحت مثلها، لم أملك شيكات البعث، أنا الآخر، وإنّما في حوزتي كمبيالة المغادرة، مُغادرة البيت، مُغادرة الكليّة، مُغادرة البنك ومُغادرة الحياة بأكملها. المُغادرة مُكلّفة، باهظة الأثمان، ما هو خطئي في أنّني لا أتوافق مع الأنظمة الرأسماليّة؟ والآن يمتلئ حوض الاستحمام بالماء الدافئ وتمتدّد "ميرا" فيه ثم تُلقني نظرة إلى مكتبها ووزنانتها ودوافعها للقيام بذلك، ولا تجد فرحة تنفرد بها. الرأسماليّة المستغلّة اجتثت منها السعادة. أمسكت بالأقلام بدلاً من شفرة الخلاقة وقطعت معصمها. ذهب في ظنّها أنّها ستقطع الرسغ على مهل، شيئاً فشيئاً. خلت أنّه لن يكون هنالك عجلة لفعالها. ولكن علام يجب أن تكون في عجلة من أمرها ساعة موتها؟ مضت سنوات العمل عجولة

في وقتٍ كئيب. كان هذا دافعاً لثلاث دُفعة واحدة. أم يجب، وبدون تفكير، أن تعدّ نيسكافيه، ضاربة صيامها عرض الحائط، وتشر به قبل أن تمضي إلى الموت؟ ويكون مشهد موتها دموياً نصب أنظار معالي الرئيس. كم تضرّعت، إلى نقطة التخلّي، لئلاً تحيا وفقاً لوقائع الأنظمة الغالبة، ولكنها فوجئت، بأنّها كانت تخطو، على حُطوط حقائقهم، فصار لها نظرة عمياء لُستقبلها، ونظرة ناقبة لماضيها، ونظرة شحيحة لحاضرها. ولم تعد تتوقّع شيئاً من أرباب البنك الذين استعبدها وحلبوها. وحدّقت إلى أرشيفات حياتها المهنيّة الضائعة، لم تجد شيئاً سوى سجل فشل، مُرّوع، مُظلم، وقاس. لم تجد أكثر من ذلك بكثير. وبرغم من مقتلها، فإنّ الرئيس سيحلّ محلها غداً غد، وهو غافل عن جنازتها، بموظّف آخر.

وفيما كُنْتُ أهذي أخذني "إدريس" ونصّبني على مكتبه لأشتغل مكانه كشكل من أشكال التخفيف عمّا حدث لي. أنكبّ على العمل المُفجع جافاً كما لم يفعل أي موظف مُحنّط آخر. أُلصقُ الكمبيوتر. أحسُّ بأنني أنتمي لعوالم الآلة والرق. أحسُّ بأنني طرف فاعل بهذه المهزلة المحتدمة. ممثّل رومانتيكي يبعث على الصّمت الحزين. إنسان بلا دم. يأكله الجُلوس والوقت. مترنّح الأفكار. لا يتأفّف، لا يتدّمّر، ولا يحتجّ. محوُّ المقاومة. مشلول الإرادة. حجريّ الهمة. حاله لا يتبدّل. لا أعرف كمّ من الزمن انقضى. هنالك شيء من الأزيز الرتيب يقرع أذني برعونة، هنالك شيء

خشين يُرعجني ويثير القرف بشراة من الدّاخل، هُنالك شيءٌ مرّ يجعلني أقع في أحضان البلادة والكسل المظلم. لا طاقة لي على المبادرة أو التّفوه بنت كلمة. هُنالك شيءٌ يُفقدني مكتتي على التحليل والتّفكير المنتظم، هُنالك شيءٌ بدّد معرفتي ونفى عقلي وساد السّواد على البياض. ما عاد بإمكانني العمل. ينصهر الألم بعقلي نصلاً حادّاً أبداً. أجهل ماذا كان في برّجني، مخزّني، يدفّني. ما أفقر المصير في نُصرته للنُّبلاء. أليس المصير الأناني أن ينصُر في الأخير الخير على الشرّ؟

وانفجرت أقدامي مُرتجفة، أبرقتُ إلى مكتب "ميرا" المُتحررة، رعدة

مُكهربة:

"أريد أن أرحل"

"إلى أين؟"

"إلى أي مكان آخر"

"لا مكان في الدنيا يستقبلنا"

"إننا أيتام القهر"

"ناس بكري قالوا كسرة وماء والرّاس في السّماء"

"وقالوا طول البال يهدّ الجبال"

"ليس لي أحد"

"ولا أنا"

"ألا ترى أنّ الحياة قد تقدّرت والنّاس مسرحياً تبيع نفسها وبعضها
في أوّل ركح"
"ما عدتُ أدرك شيء"

"ألا ترى أنّ اللوائح قد عبّتهت بما فيه الكفاية والنّاس أخلاقها حليقة
تماماً، لا عزة لهم ولا ثقافة، والأحمق بالتملّق والتزوير يصير وزيراً"
"من أجل سلامي أصبحتُ أقلّ رؤية وقد انتهت. كلّنا نعرف كيف
تسير الأمور هنا"

"لقد حاربوك كثيراً مخافة منك، بأوسخ الوسائل المستحيلة، كبالوعة
سوداء حاقدة سرقوا منك الأضواء، إلى أن فقدت كل إحساس بنفسك"
"ما عاد يهمني أي قادم، ولا شأني يخصّني، ومتى أفكّر في نفسي
ومستقبلي يأكلني الإهمال"

"أستقف مكتوف الأيدي؟ استيقظ من حقل اللامبالاة أو فليخرجك
منه أحدهم!! استفرغ كلّ شرّ قدّم لك على أطباق المحبّة والصدّاقة
والقراة"

"سأقف حيث الصمت والبُعاد والفرّ وحبّ الآخر، لعلّي أنجو
بإنسانيّتي. بنقمة القدر وعواصفه، ذلك الشرّ الذي جعلوني ابتلعه
واستنشقه أنا وغيري لا أهتمّ بالتخلّص منه، بل سيبتلعون ويستنشقون
وذويهم ضعفه. الواقع أنّ كلّ ما سرقوه من أضواء ما عاد يعينني، ذلك

أَتَمُّمَ بِلَا أَضْوَاءٍ مِنَ الْأَسَاسِ وَكُلِّ تَلَكَّ الْبَهْرَجَةِ حَوْلَهُمْ اِكْتَسَبُوهَا مِنْ
السَّلْبِ وَالتَّمَلُّقِ وَالغَشِّ وَالشَّرِّ، وَعَدَمِ مَغْفِرَتِي أَنَا وَغَيْرِي يَعْنِي عَدَمَ
سَلَامِهِمُ الْأَبَدِيِّ، وَهَذَا كُلُّ مَا ظَلَّ يَعْنِينَا"

"عَيْنَاكَ، تَحَوَّلَ لَوْنُهُمَا، كَأَنَّهُمَا بَثْرَا مِنْ ظَلَامٍ"
صَارَتْ تُحَدِّثُنِي عَنْ كُلِّ مَا يَحْصُلُ فِي الْكُوَالِيْسِ الْمَظْلَمَةِ. وَكُنْتُ

بمضمونه. رقيق الأمس يُباع بشكلٍ دائمٍ أمّا رقيق اليوم فيُكترى لعشر ساعات. كان هنالك سوق للعبيد، اليوم يُوجد بنك للعبيد. صارت تُراودها أفكار مُخيفة كأن تضع حدًا لحياتها. إنَّها ضحيّة هذا الجو العدائي للبنك. أُصيبت بلوثة مُعيّنة أحدثت فيها تبدّلات بالمخ. "أنا لستُ ما كينة لأعمل المدّة عشر ساعات وأكون مُستهدفة لكمّ من المضايقات والهرسلة والاستنزافات، ولا أشعر" تقلّص نظام تفكيرها الطّبيعي. إنَّها تُريد أن تقتل نفسها. إذا طلبت إجازة يقولون لها أنّه ما من خطب بها والتعب ما هو إلّا غُتاج. يتلاعبون بهم من خلال الخوف، فمن منهم لم يفهم ذلك بعد؟ إلّا الحمقى ومن يتبعون وصايا النّظام. يُشغّل البنك 700 موظّف شاب من أصل 1800 طاقة عاملة من خلال المناولة. إنَّها جريمة. تُوجّه الشركة المُتدبة رسائل هاتفيّة إليهم تُنبّه الموظّفين المُتعاقدين من التورط في الاضرابات إلا برضى المُشغّل. والغد في ما يعينهم؟ لا ينبغي التفكير فيه. لديهم يوم وحيد ليُكرّروه إلى أن يجيء يوم التقاعد عقبى سنواتٍ من الظلمات.

شُعور غريب لم أستطع أن أذرف الدمع. لم يشفع لي القهر حتّى من إلقاء دمعة يتيمة. نشاف القرنيّة لا يعرف الشفقة. في الأغليّة هلاكي. ما وجدتُ نفسي قُرب الأغليّة وإلّا قد كان هلاكي وشيكًا. كانت السّاعات تتسابق مثل أعمدة الأضواء إلى أن جاء غاوي

التسلّط وطوّح بي خارج البنك نهائياً وبلباقة دون تقديم شروحات. بحُشونة من أدمنَ على إحناع عجينة ليّنة ورفسها. وبصلابة من وإلى على ليّ الجرسونات وقهرهم. يُفرغ كلّ ذلّ حدث وأن لقيه من طُغاة سابقين. لولا شبح الفُصام وخيوطه التي تُحرّكني، لكنتُ رميتُ بنفسي عليه، يا قاتل يا مقتول.

ونددت عن حُجرتِه فرقة فيها تلذذ. "نمّ في بيتك، ولا كلمة" فرقات طائشة، وبقرف من يُريد أن تنفلق الأرض وتسحبه خرجتُ أجوب طُرقات المدينة. يداي مستدلّتان. أفقد قداسة لمعان حدائي. ألحان إيغور سترافينسكي تعزف في مسامعي وشيء ما يرفسنني. وفي رأسي حريق مسعور يُمزق أعصابي. اليوم أكثر من أيّ يوم آخر أمقتُ مرضي النَّفسيّ. الذي يتمثّل، في مُقاومة، شبح الفُصام. لكنني توقفتُ، فجأةً، عن التفكير، وصرختُ بأعلى صوتي، آه، ما أعظم حياة الحرّية. لم يكن السّبب في أنّني نمت، وإنّما في كوني عرفتُ أكثر ممّا ينبغي معرفته وأنني منشأ تهديد لهم.

كان موج الأنظمة الشمولية للمليشيات يجرفني معه، في مكان ما، بين هذا وذاك إلى أن تاه منّي الوقت ونقضت عهد التصدّي له وتجردت ممّا كنت أوّمل كما في الأحلام. فانزلقت في انعكاس الصورة اللحظية والدائمة. لازلت أبحث عن جسر عبور الجانب الآمن وانقطاع الآلام

الإنسانية. ولن أتلمس مُستطاعٌ توثيق معجزة السّلام. فما من خيط إلى المأمول. نزاع الابتلاع في وحل القبيلة مُتيسراً بسُهولة. ما الذي أنتظره من رحلة كابوس الغد؟ اليوم، لا مناص لي من ترقّب التباس المنجى. كان الطريق من ظلام ما مكّني من صدارة الترسّب والركود في تزامم تيارات أتون الغضب. يتملّكني اعتقاد عدم جدوى منزلة البقاء. كانوا يودّون خرابي بأيّ شكلٍ من الأشكال. أكثر من أي شيء آخر أرادوه. رُغم أنّي لم أكن أعني شيء في حياتهم. وفي السكون المشتعل والضجيج المنطفي قد استمرّيت كشجرة مُنقبضة تسجنها جذور من الانتهاء حيث لا أكون وحيث لا تحدث الأشياء كما يخلو. كراهية مُطلقة ومُتصبّبة كانت في غوثي المُتصل. وفي عيني حقد مُتحرّ يُدين البقاء ويزرد المغفرة. وفي عيني دين لا يسدده أهل أرض. أرنو إلى أن أكون منزلق، سهل التملص، عديم المبالاة، قليل الماضي، كثيف الحاضر، وشديد المُستقبل. أريد أن أخرج نزعتي المقموعة. أشعر بتعب الانسلاخ، بتعب البدء من جديد، بتعب التأقلم. ومن فوهة النّار يتصاعد رماد الأوهام. وحصيلة التعب يكون الهباب. فيتنفخ ورم التنازل في عوالم مُشوّهة يجوب فيه الطفل في متاهات ما ينتظره بغير انتظام ويتحد بظلال الخراب من دون مداخل ومخارج مُحدّدة. ومن خلال هذا العمر المهتمد يموت الطفل شرّ مية بأسفه الثابت وفي مسافة الحياة كم يموت كثيراً إلى أن يندفع بداخله شره موت الحق وهذا

أشبه بجوع الحب المتعذر في قوقعة كره يغزوها شيطنة البشريّة. فيشك في الحب ويشك في وجوده. لن يصل إلى مواضع نيّرة ما لم يجهض من كون السراب ومن الانمحاق الأزلي ومن عدمية الضباب. وجرياً نحو السكينة يحنق في عزلة سرمدية خبرها من سبقوه. في قيد التجريد يُرتق وجوديّة مُمزّقة. وهذا لن يكون تحبّطاً وإنّما أليماً بأرباع الأشياء بأرباع التلاشي. تفتقر إلى الإمكانية وتفيض بالتكلّس.

أستنظرُ "هالة" كل ليلة، وكل ليلة نلتقي تحت عمود الإنارة. فاتني مناقشة رسالة الماجستير في دورتها الأولى ذلك أنّ البنك قد إعترَض على تزويد الوسيط الذي أرسلته بالأوراق اللازمة، على الرغم من أنّي قد أتممتُ فترة تربّصي.

استنجدت بـ "هالة" وكان طلبي مُجاب:

"ضع ختم البنك على هاته الأوراق"

خلال يومين اتّصلتُ بها ولم تردّ. وآملي من ذلك واهن.

اتّصلت بي منذ ما يزيد عن يومين.

"لقد اتّصلتُ بك ذلك أنّني وجدتُ مُكالمة منك"

نظرت في انذهال. "لم أفهم"

"أخبرتُ الجميع بما طلبته منّي"

"ظننتُ أنّنا أصدقاء"

"صديق العمل عدو خفي"

"لكنني حسبتك مني"
 "أتمنى لك النجاح لكنني لن أساعدك"
 "ولكنني حسبتك مني؟"
 "إنني أعبدُ المال فحسب"
 "ومودتي؟"
 "أغدقها على أخرى"
 "ما مآل حبي؟"
 "الفراق"

"إن فارقتني ستندمين"
 "لا أريدُ منك شيئاً بعد اليوم، راتبي أهمّ من ترّهات الحبّ"
 "رَبِّها لم يكن شيئاً مهمّاً بالنسبة لك، لكنّه كان قلبي"⁽¹⁾
 أغلقت الهاتف بوجهي. مازجني الحُزن. ما كرهتُ في دُنْيائي شيئاً
 بقدر الخذلان وما يخلفه من ظلمات للنفس. يجتاحني كبرياء لأنّ أنهي
 وجوده، يعتريني ميل لأنّ أنفجر نصب غروره. وأنا لا بدّ لي من كسر
 ساير الخذلان. إنّي في لازمة لزوال لزومه. وأنا أكره سواده ودرجاته.
 ينفجر لسعه المتناع في نفسي. يحفر شيئاً يقبض بأوتاري، يُدخّر شيئاً لا
 يقلّ قسوة عن الموت، يُخلف شيئاً يُعزّز دَفَقات الصمت، يُفارق شيئاً أكثر
 حرقة من السّحق.

(1) محمود درويش

أتساءل عمّا إذا كنت قد أحببتني بحق، أنا عن نفسي قد أحببتك بصدق. يتردّد إلى ذهني عمّا إذا كنت قد عنيت لك شيئاً؟ أحسب أنّ الأفعال تُخبرنا بما يشعر به الشخص. أتساءل عمّا إذا كنت سعيدة بهدمي؟ يبدو لي أنّنا قد خرجنا الليلة إلى مكانٍ ما وأجبتني بخيبة أمل ورفض. كان الرفض من عادتي، أن أرفض الخروج، أن أتجنّب مُلاقة البشر بقدر ما أمكنني. الوحيد الذي كنتُ على سجيّتي معه كان أحد الأصدقاء القدامى، كُرهنّا للناس جمعنا. كنتُ أشعر أنّه ليس حقيقياً وسيُفاجئني بالحقيقة هو الآخر، لذلك فاجأني بها. أتساءل ما إذا كنتُ ستذكريني في قادم الأيام؟ أم أنّ الحياة ستأخذني بين أُمواجهها وأنا لن يذكر شيئاً. أحياناً لا شيء يستقرّ في رأسي. كل شيء يتبخّر، تماماً كما أرتاب بوجودي.

لم أتردّد لحظة في تحويل وجهي إلى الظلام ثانية. يُدخّلني إحساس أنّ الظلام هو الشيء الوحيد الذي ليس من الجائز أن يُخدلني. الظلام صديق أخلص لي. حبيب وفي. تلقّفتني متى هويتُ في القاع السحيق. جعلني لا أدرك سطح القاع. الظلام لا يتجاهلني رغم أنّني أتجاهله كلّما أبصرتُ نور العالم الخارجيّ. رأيتُ من الظلام الإخلاص والصدق والوفاء. أمّا الحب فلم أر منه إلاّ عكس ما كنتُ أنتظره. ليتني أسافر من فوري. أفارق كلّ شيء وأتبع خطوات مصالحي. أتبع خطوات مصالحي بشكلٍ أنسب ممّا أن أتلمس طريقاً مُشوّهًا نحو شخص كلّما بادرتُه خطوات خذلني

ألف خطوة. لو عَلِمْتَ بما أَكَنَّهُ لها من صدق لما استهانت بخردل حُزن، لما اختصرت مشقَّة الطَّرِيق عَنِّي وناصرتني، لما كُنْتُ قد تورَّطْتُ بها بهذا المقدار من الصدق الَّذي وصل إلى حُبِّ، لما تركتني أَتعلَّق بها إلى هذا الحدِّ. الليلة خيبة أُملي شديدة وقلبي يسحقني. أنا كشخص لستُ كسائر الأشخاص. وللماضي الأليم وما حدث لي فيه- من إننيار صحتي النَّفسية والجسدية وتهالك مُستقبلي ورحلة استرداد توازني النَّفسي وخُرُوجي من الأوجاع النَّفسية ومشوار استرداد بعضًا من قواي الجسدية- ذريعة لِقُبُولي بالناس بالكاد مُجدِّداً. أذكر مرَّة أنَّ الطَّبيب المُعالج أخبرني أنَّني سأتعافى حينما أجد الحُبَّ المُناسب، الَّذي سيقبلني مُنظفًا ويد بيد يُمكنني رؤية الضَّوء من خلال عينيه. اليوم يُمكنني أن أكون على يقين من أنَّني لن أشعر بالشفاء. ولا رغبة لي بالحياة الرثَّة التي يجيهاها معظم النَّاس. لم أرها بعد ذلك مُطلقًا.

إني اليوم كما الأمس أتعرَّى من الحُبِّ. لعلِّي سأحوِّل حُبي للقطط ودعم جمعياتهم، فحُبِّي للبشر لا يُطلق إلا ويُسْتَنْزَف. لازلتُ أحسُّ أنَّ أدنى إهتمام يُقدِّم لي يتحوَّل فجأة إلى حُبِّ حتَّى وإن كان من فرد. بعد شهرين من المحاولة، تلك الأوراق نلتها من خلال وسيط أكبر (كان أخي) جلبها لي بمُعاضدة البارون الأكبر الَّذي حسبتُ أنَّه كان قد شَعَّرَ بشيء من التَبَكُّيت. لكنني كنتُ مُحْطَأًا. سيرفس لقاء سيرفس. بزنس از بزنس. عندك فرنك تسوى فرنك. تفرح بيًا نفرح بيك.

في التاسع عشر تموز (يوليو)، الموافق ليوم عرفة ناقشتُ مُفكرة الماجستير بشكلٍ استثنائي وأحرزتُ عدد خمسة عشر. كان أقلّ عدد وذلك يعود لمغيّب الريبورتاج الذي حرمني منه البنك. جُبل الأكاديميون بالاعترافات الواردة في المذكّرة.

غداة غد قضيتُ عيد الاضحى مُكتئبًا بالبيت.

مضيتُ للاحتفال بتخرّجي في إحدى ليالي أغسطس الحارة فتهدّلت لثّتي وانتزعت الطبقة الثانية من مينا أسناني من أوار الجبن اللاذع. لم أحمق نجاحًا مع عشرة أطباء أسنان. فارقتني النوم لشهرين. كنتُ أحوّل كالمسعود من طبيب إلى طبيب وقصف الرعد في رأسي يلتهم ما تبقى من همّتي. وإنّي لأعرف أنّه لا أحد جدير بأن يُساعدني. وكُلّي تهكّم في إطلاق النار على نفسي حدّ الموت. وكُلّي تهكّم لأنّ أهرزم شيئًا ما، وفي داخلي رعدة يهزني تيارها لأدمر شيئًا ما، لعله غزو الرأسماليّة وفوضاها.

أحجّمتُ عن التداوي بعد أن أنفقتُ كل ما أملكه في طلب الشفاء وبقيتُ مُتألّمًا.

عاودتني فكرة أن أقتل نفسي مُجددًا. عانَدتُ مخاوفي وأوجاعي النَّفسية بالرجوع إلى الكتابة بدلًا من الركون إلى أركان الوحدة والظلام. عاودني التعب المزمن من زمن التعب المزمن. وأنا بلازمة لأنّ أطلب المساعدة من شخصٍ ما، أن أحتمي ممّا أجهله ولا أحتمله بشيء ما. في تلك الصّائفة لم أر البحر، إذا رأيتُه لبيكيت.

في ماي 2022 جاءتني سائحة لنشر واحدة من رواياتي بفلسطين،
فاخترت رواية السّاعاتي.

جرش كاتب تونسي نشري من خلال سحب رواياتي الأربعة من دور
النّشر العربيّة وبعثها إلى كتّاب تونس فكتبوا عنيّ مقالات نقدية شتموني فيها.
عن طريق كاتب وأستاذ جامعي أرسلت كاتبة تونسية رواياتي إلى
المعهد أين تحصّلت على الإجازة. أرسل مدير المعهد رواياتي إلى معهد
ثانٍ، أين تحصّلت على شهادة الماجستير.
أزال إداري بالمعهد أنني قد ناقشتُ مذكرة الماجستير وحظروني من
تسجيل بالدكتوراه.

استعنت بكاتب سوري وقد كان طلبي مجاب. تقصّي عمّا شجر لي بين
كتّاب تونس، فاتفقوا كلّهم على أن يخبروه أنّها ليست رواياتي فحظرتني
دونما أن يمدّ لي يد العون.
كانت شهادة السيّدة أحلام مستغامي صارمة، وقد قامت بالذود
عنيّ.

اتّصل بعض الكتّاب العرب-على غرار السيّدة أحلام مستغامي
-بعائلي بنّية أن أنضمّ إليهم دون أن يكون لي دراية بذلك، فماتت
عائلي هذا القرار.

تصاعدت الحوادث الشجيّة وغمرتني حالة من الكآبة.

■ زمن التعب المُزمن

سّة المرافدة فدفتري مكالمة وأرسلها إلى



ياسين الغماري

زمن التعب المزمن

كان القمر الذي يملأ السماء بفرش أضواءه على الطرقات. بدعا التحيلة والشاحبة
محشوة في فتحات معطفها، كالعادة. وكلما ضبطت نوقبني أجدها بعالمي. بقامتها
أمامي. منصهرة بفراقي. وملتحمة بأبديتي. كثيرٌ بها أنا بشارة الزمن. فاجمي هذا الوله
الذي أنا فيه. تعلقتُ بها بكل ما تحمله الأرض من خيبات. من ذا الذي فرح أجراس
أرضي. خرّ قلبي مع قلبي. في دنياها عوى. في الأرابي مُتَبِّم. دُنْيَايَ فِيهَا عَوْتُ.

تأخذه
نون يزعمنا الحب

بيني الصاروخ

تأخذه

تأخذه